مؤمن المحمدى

عزيزى المواطن المسلم

لماذا أنت متخلف؟

أحمد قنديل وإيناس عبد الحميد
لا يعرفان
كم هما مؤثران،
لكنهما كذلك.
إليهما أهدي هذا الكتاب

مقالات

مقدمة

هل يوجد خالق لهذا الكون؟

قبل أن تبسمل وتحوقل وتلقي هذا الكتاب من يديك أو تكسر جهاز الكومبيوتر، فكر بهدوء ثم أجب، وحتى تفكر، دعني أقل لك المقصود بالسؤال.

لنتخيل أننا أمام جبل عالٍ، أعلى من كل الجبال، حاولنا أن نعرف ما وراءه، تسلقناه، اخترعنا سلالم بكل الأشكال، ركبنا طائرات عملاقة، رصدنا بالأقمار الصناعية، ومع ذلك لم نصل أبدا لكشف ما وراءه.

ماذا يحدث في تلك الحالة؟

سيكون لكل منا "تصوره" الخاص لما يخبئه الجبل خلفه، ثم يحاول كل منا نشر تصوره وتعميمه، وبمرور الوقت سيتحول التصور إلى يقين واليقين إلى عقيدة، ثم يورث هذا الأمر للأولاد من بعده، والأحفاد من بعد بعده، ثم يبحثون عما يدعم تصورهم بحيث يصبح "حقيقة". وبمرور الوقت يصبح أمامنا آلاف التصورات التي يؤمن أصحابها بأنها الحقيقة ولا حقيقة سواها.

هل أشكك في وجود خالق لهذا الكون؟

بالطبع لا، لأنه لا يعنيني من قريب أو من بعيد أن تؤمن بوجوده أم لا، لي "تصوري" الخاص، الذي لن أفصح عنه لأنه لا يعنيك، أنا فقط أريد أن أذكرك بالواقع الذي نعيشه.

فالعالم يزيد عن سبعة مليارات نسمة، وكل يوم يموت مئات الآلاف، ربما ملايين، ويولد غيرهم وأكثر منهم، تريليونات من البشر، يمتلكون عددا لا نهائيا من التصورات حول الخالق، معظمهم يعتبرون تصورهم يقينا، ويسمونه ديناً.

مبدئيا، هناك من يؤمنون بوجود إله، ومن يؤمنون بعدم وجوده، ملايين من الملحدين في العالم، منهم مثقفون وعلماء وأدباء على مستوى رفيع للغاية، لم يؤمنوا بوجود خالق لهذا الكون، وإن كانوا أقلية.

غير أن المؤمنين بوجود إله، لم يتفقوا على طبيعته وماهيته، وبالتالي فإن كلا منهم بالنسبة للآخر لا يختلف عن الملحد في شيء، خصوصا هؤلاء الذين يؤمنون بإله لكنهم لا دينيون، بمعنى أنهم يؤمنون بأن "الله" لم يرسل أحدا ليكون وسيطًا بينه وبين البشر.

أصحاب الأديان أنفسهم منقسمون إلى آلاف الأديان، الرئيسي منها بالعشرات، مسيحية وإسلام وبوذية (دين لا يؤمن بإله) ويهودية، وهندوسية وإباضية وبوحية وبهائية وأديان على كل شكل

ولون، وبطبيعة الحال فإن كل دين له أتباع يؤمنون بأن دينهم هو الحق المبين.

هل نحن بحاجة لنقول إن كل دين انقسم إلى "مذاهب" داخلية، وصل الاختلاف بينها إلى حد يجعلك تقول مطمئنا بأنها أديان مختلفة. مثلا، الفارق بين السنة والشيعة والقرآنيين والمتصوفة في الإسلام يجعلها أديانا مختلفة، تكفر بعضها بعضا.

الخلاصة، عزيزي المسلم، السني خاصة، المصري على أخص الخصوص، فإن ما تملكه هو محض تصور من بين آلاف، وربما ملايين، التصورات. وإيمانك بأنه التصور الحق، لا يعطيك الحق في ازدراء أصحاب التصورات الأخرى ناهيك عن اضطهادهم، أو السعي للتخلص منهم. لا يعطيك الحق في أن تعتبر نفسك ذكيًّا ذكاء التنين في مقابل غباء الآخرين الذين لا يؤمنون بما تؤمن به.

مشكلتك الأولى يا صديقي أنك لا تستطيع أن تحقق المعادلة التي طالما تغنيت بها، وهي أن "رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ يحتمل الصواب". تعاملت معها كما تتعامل مع معظم شعاراتك: ترددها بكفاءة ببغاء، وتنساها كأنك سمكة.

السؤال الآن: وأين التخلف هنا؟

دعني أخبرك بأن ما ذكرته هو في حد ذاته تخلف، لأنك كرست حياتك؛ وقتك وجهدك ومالك وتركيزك وأعصابك، لمراقبة الآخرين وتقييمهم بحسب قربهم أو بعدهم من تصورك هذا، حتى وإن كانوا

يظهـرون عكس مـا يبطنون. وأخـذت تقـيس الناس بطول اللحـيـة واتساع الملابس وحجم ترديدهم لـ: "قال الله" و"قال الرسول".

أنت تحرم نفسك من نعمة انفتاح العقل، واتساع الأفق، وتغرق في بحر من الخرافات لمجرد أنها تدعم تصورك، أو هكذا تظن.

ما أقصده بالخرافات ليس ما تؤمن به، فكما اتفقنا أننا جميعا نمتلك قناعات قد تصدق وقد تكذب، وإنما أقصد بالخرافات ما ألحقته بدينك ومنحته القداسة نفسها، وهو ما نناقشه على مدار صفحات هذا الكتاب.

غير أننا نرى، هنا، أن هناك أفكارا حول ما ذكرنا، تستحق أن نقف أمامها ونناقشها، أفكار نسمعها في كل مكان يرددها المتحمسون للإسلاميين على اختلاف توجهاتهم، ومنها:

إن "صحيح الإسلام" يقر بحرية العقيدة، وأن الله أمرنا بكذا وكذا، وأن القرآن قال كذا وكذا، وأن المتطرفين والجهلاء لا يمثلون الإسلام، وإنما يمثله الوسطيون المعتدلون، إلخ إلخ.

حسنٌ، إذا كان "صحيح الإسلام" يرفض إجبار البشر على اعتناقه، فلماذا لا يجرؤ الملحدون في البلاد الإسلامية على الجهر بإلحادهم دون أن يكونوا عرضة للقتل أو النفي أو السجن أو التشريد؟

تحت أي عنوان يا صديقي نضع من يحرقون منازل البهائيين،

ومن يطاردون المتصوفة، ومن يسعون لتطبيق حد الردة وحد الحرابة، ومن يحاولون استصدار القوانين لتضييق الخناق على غير المسلمين؟

من الذين يقتلون هذا لأنه شيعي أو ذلك لأنه صوفي أو لأنه قبطي، أو حتى لأنه سني لا يتبع تصوراتك بالحرف؟ من الذي يمنع بناء الكنائس إلا بقرار مركزي؟ من الذين يحرمون الأم من أبنائها، والأب من أولاده، ويفرقون بين المرء وزوجه؟

كل هؤلاء يؤمنون بأنهم يتبعون صحيح الإسلام، بل إنهم في الواقع يكفّرون شريكهم في الدين إذا لم يشاركهم في حملاتهم لمطاردة غير المؤمنين بما هم به مؤمنون.

ولكن، أليست كل الأديان تحمل الصفات نفسها؟ انظر إلى النصارى، إنهم يفعلون ويفعلون. اليهود يفعلون ويفعلون، الملحدون يفعلون ويفعلون، فلماذا تختص المسلمين وحدهم بالتخلف؟

حسن، دعني أخبرك بأنني لست مشغولا بـ "كل الأديان"، وليست المسألة من الأصل دينية في وجهة نظري، أنا أتحدث عن مجتمعي الذي تصادف أن أغلبيته المطلقة مسلمة، وأرى أن تصورهم عن الإسلام يعوقهم ويعوقني معهم. في أوروبا والدول المتقدمة توجد مساحات من الحرية تكفي لنمو الزهور جميعا، وأن تسب أحدهم بأمه، أهون عليه من أن تسأله عن ديانته، مجرد سؤال.

أوربا والدول المتقدمة ليست جنة بالنسبة لي، ولا هي النموذج، لكنها مقارنة بمجتمعاتنا الإسلامية هي بكل تأكيد كذلك.

وحتى مع افتراض أن كل أصحاب الأديان الاخرى متخلفون، فلماذا لا تكون أنت مختلفا، وتحاول التقدم؟ ألا يجدر بك، كمسلم، أن تكون في المقدمة؟ أن تسعى نحو حياة أفضل، وقيم أرقى؟ إن كنت جادا، إن .....

لكن الأمة في خطر، فالمؤامرات تحالك ضدها ليل نهار، والكل يتآمر على الإسلام، إنهم يريدون أن يهدموا دين الله، وأمريكا تنفق المليارات سنويا للعمل ضد الإسلام، ومصر مليئة بشبكات التنصير، لذلك فإن التمسك بصحيح الدين هو السبيل الوحيد لإنقاذ الهوية، أليس كذلك؟

بيدو هذا الكلام منطقيا، مقدمات تؤدي إلى نتائج متسقة معها، غير أن هناك عدة فخاخ في هذا الكلام.

- **الفخ الأول هو تحويل صراع دولي تتطاحن فيه دول ومحاور وأحلاف إلى تآمر ديني من طرف واحد، إذ تشترك جميع الأديان، واللاأديان، في التخطيط لهدم دين واحد، دونما سبب مقنع، سوى أنه دين الله بينما الآخرون يتبعون الشيطان.**

إن هذه الرؤية لا تقدم إجابة عن ذلك التحالف بين السعودية المسلمة، التي تطبق "شرع الله"، وأمريكا المسيحية الكافرة، دعما للمسلمين السنة في سوريا، ضد النظام السوري المسلم العلوي، المتحالفة مع إيران المسلمة الشيعية.

ولا تفسر لماذا دعمت أمريكا الإسلام في أفغانستان لعقود، ثم لماذا وصلت العلاقة بينهما إلى حد القتال فيما بعد، ولا لماذا أحرق هتلر الفاشي اليهود؟ ولا كيف تعاون الغرب المسيحي مع أمريكا اللاتينية لاغتيال جيفارا الملحد.

هل تعلم أن المنشد العالمي سامي يوسف، هو إنتاج صاف للمعهد الملكي البريطاني الموسيقي، وأن حماية اللغة العربية (لغة القرآن) حملها المسيحيون اللبنانيون في أوقات عديدة، وأن الدومينيكان لعبوا دورا بارزا في حماية وتحقيق المخطوطات الإسلامية، وأن أفضل وأدق تحقيق لابن الفارض قدمه مستشرق إيطالي راهب كاثوليكي شرفت بالعمل معه، لم أر من يهتم بالتراث الإسلامي ويقدره مثله.

العالم يا صديقي أوسع بكثير من تفسيره بناء على عامل واحد، والتفاعلات فيه ديناميكية ومعقدة بحيث إن تبسيطها المخل في أنها "مؤامرة" مستمرة وثابتة يعوق فهمها، ومن ثم حسن التصرف حيالها.

- **الفخ الثاني في هذا الكلام، يتمثل في رد الفعل على تلك المؤامرة، إن وجدت، فوجود مؤامرة على "الإسلام" يستوجب شيئا واحدا، وهو المقاومة، والمقاومة لا تكون إلا بالقوة، والقوة ليست قوة سلاح فحسب، وإنما هي بالأساس في العلم والتقدم، والتقدم لا يأتي إلا بالحرية والتعددية، وفتح جميع النوافذ.**

الغرب نفسه الذي يشن حربا شعواء ضد الإسلام، بحسب تصورك، لم يجبر مواطنيه على اتباع دين معين، لم يقل إنه يتمسك بصحيح المسيحية. لم تعلن اليابان رفضها وطردها للأديان المختلفة، بل إنها لم تهتم حتى بأن يعرف العالم أسماء الأديان السائدة عندها، بل إنهم يسمحون بالصلاة المشتركة بين أصحاب الأديان المشتركة.

باختصار، إذا كانت هناك بالفعل مؤامرة ضد الإسلام، فإنك، بما تفعله ضد غير المسلمين، لا تقاوم المؤامرة بل تدعمها. وأنت حر.

مؤمن المحمدي

وكتاب الله المجيد

"عن الكتاب الذي تنطق به أفواه الرجال"

أنت تؤمن بأن لهذا الكون خالقًا؟ يا بختك، وتؤمن بأن الله الخالق أرسل رسلا تعرف البشر به، وبكيفية عبادته، وأن آخر هؤلاء الرسل كان محمدا بن عبد الله الذي أتم الرسالات جميعا، وأصبح هو المرجع. حتى الآن أنت تمام، تمارس حقك في الاعتقاد والإيمان.

وكمسلم، تؤمن أيضا أن الرسالة التي أرسلها الله عبر رسوله هي القرآن الكريم، الذي يجب على البشرية أن تنفذ ما جاء به إذا أرادت أن تتقدم وأن تسلم دنيا وآخرة. ولا أحد في العالم يستطيع أن يراجعك في تلك القناعات.

لكن، دعني أسألك بعض الأسئلة المحرجة:

ماذا تعرف عن القرآن؟

إلى أي حد أنت تفهمه؟

تخيل أننا اخترنا عشوائيا ألف مواطن مسلم وسألناهم عن معنى

أبسط الآيات القرآنية: والعاديات ضبحا، غاسق إذا وقب، المرسلات عرفا، وغيرها، أو طلبنا منهم أن يحكوا لنا قصة يونس مثلا كما فهموها من القرآن، ولماذا حبسه الله في بطن الحوت؟ أو استفسرنا منهم عن أحكام المواريث كما جاءت في سورة النساء، أو حاولنا الحصول منهم على فكرة عن الناسخ والمنسوخ، المحكم والمتشابه، المطلق والمقيد، أسباب النزول، أو واجهناهم بما ورد في أمهات الكتب من أحاديث منسوبة إلى كبار الصحابة من أن القرآن تعرض للإضافة والحذف والتعديل بعد وفاة الرسول، بل ماذا لو فتحنا لهم المصحف وطلبنا منهم قراءة بعض الآيات قراءة سليمة. **تخيل** هذا، وقل لي، أو قل لنفسك، كم من الألف سوف يجيب عن هذه الأسئلة؟

بعد أن تجيب لنفسك عن السؤال، فكر جديا في الوضع الحالي لبلاد الإسلام عامة، وخاصة مصر. ملايين البشر يطالبون بالتطبيق الحرفي لما جاء في الكتاب الذي لا يعلمون عنه شيئا تقريبا.

انظر إلى آلاف الحضانات التي تفخر بأنها تقوم بـ "تحفيظ" القرآن الكريم، حتى يردده الأطفال كالببغاوات، يحفظونه عن ظهر قلب ثم ينسونه عندما يكبرون عن قلب ظهر، لأنهم لا يفقهون فيه شيئا.

انظر إلى هؤلاء الذين يفاخرون في شهر رمضان بأنهم "ختموا"

القرآن ثلاث مرات: مرة له ومرتين لوالديه رحمهما الله، دون أن يحاول أن يتوقف أمام آية منها ليتدبر كيف تؤثر في حياته.

تذكر كم مرة ركبت مع سائق تاكسي يضبط الإذاعة في راديو السيارة على إذاعة القرآن الكريم، ثم يسب الدين لمن كسر عليه في الإشارة، وبعضهم يشغل القرآن "ساعة الصبحية"، قبل أن يبدأ في تشغيل أي "دوشة" ليشبع هوايته في نشر الضوضاء.

لن أقول لك إن هناك آية في سورة الجمعة تنطبق بحذافيرها على هذا الوضع البائس، لكنني سأفترض أنني وافقتك على أن القرآن دستورنا، وأننا يجب أن نتبع كلام الله، ثم سألتك: ماذا يقول الله في كتابه؟

إنني أطلب منك طلبا صغيرا وبديهيا، أريد أن أعرف منك كيف نحل مشكلة المرور والمياه وأزمة الإسكان؟ وكيف نحقق خفض نسب البطالة والتضخم، وزيادة معدلات التنمية؟ وكيف نقيم دولة بها سلطات ونفصل بين هذه السلطات؟ وكيف نرتقي بالتعليم وننهض بالعلم ونؤسس مجتمعا يكون له بين المجتمعات شأن، مجتمعا يعمل له العالم حسابا، ولا يربط بينه وبين التطرف والإرهاب والتخلف، ولا يشعر بأنه عالة على البشرية، وكل هذا من القرآن الذي تطالبني بتطبيقه، وفرضه على البشرية.

وقتها ستحيلني إلى "العلماء"، وستتحجج بعشرات الحجج عن قلة

التركيز والوقت والمال، وأن الحياة شغلتك عن تدبير معنى كلام الله الذي لا تمتلك غيره وسيلة للصلة بينك وبينه.

ستقول لي إن الشيخ الفلاني والشيخ العلاني والشيخ الترتكاني يفهمون القرآن بسم الله ما شاء الله، وأنهم هم المسئولون عن إيصال هذه المعاني للناس. وبالطبع، فإنك بهذا الوضع تمنحهم القداسة نفسها الذي تمنحه للقرآن، وترفض انتقادهم لأن لحومهم مسمومة، ناهيك عن التشكيك في نواياهم أو نوايا الذين قد يستخدمونهم.

حسنٌ، رضيت إذًا بأن تلعب دور الأعمى الذي يجره البصير، رافضا ولاعنا من يقول لك: يا سيدي، أنت مبصر، فقط هناك عصابة على عينيك اسمها الجهل، انزعها، وستصبح أنت ومن يجرك سواء، بل قد تفوقه بصرا وبصيرة.

أنت حر في اختيارك هذا، لكن دعنا نفكر في بعض الأمور المتعلقة بهؤلاء الشيوخ:

١- لم يؤد وجود هؤلاء يوما ما إلى زيادة وعيك بالقرآن، لقد ظل الشيخ الشعراوي يشرح القرآن عقودا، ولم تزد الحالة منذ ظهوره منتصف السبعينيات من القرن الماضي إلا جهلا وظلاما وبعدا عن تدبر معاني القرآن، في الوقت الذي تتصاعد فيه المطالب بتطبيقه. وكل ما ورثناه

عن الشيخ هو آراؤه الشخصية في الحياة والسياسة.

٢- لم يتوصل هؤلاء الشيوخ إلى صياغة أية فكرة قائمة على القرآن في أية أمور حياتية أو سياسية أو اقتصادية، وأغلب ما توصلوا إليه هو التنقيب في كتب الحديث، وليس القرآن، لنشر أمور شكلية من قبيل اللحية والحجاب ودعاء دخول الخلاء ودعاء الركوب. وعندما يتحدث أحدهم في أمور البلد فإنه بكل المقاييس كارثة.

٣- لم يتفق هؤلاء العلماء حول أي شيء تقريبا، بل كان لكل منهم تفسيره الخاص، وتكفيره لغيره من "العلماء"، وهكذا، رأينا الشيخ سالم يكفر الشيخ الغزالي، وكثيرا من الشيوخ يكفرون الشيخ عبد الصبور شاهين، والشيخ العوضي في وصلة ردح مع الشيخ محمد حسان، والشيخ السعودي الذي طالب حسان أيضا بأن يعمل راقصا أو طبالا، وشيوخ الدعوة السلفية الذين يكفرون شيوخ حزب النور. وبهذا فإن من يثقون في الشيخ حسان مثلا، هم مؤمنون بحسان وليس بالقرآن، ومن يتبع ابن عثيمين، فهو يؤمن به وهكذا.

٤- إذا كنت تتخيل أن الدولة بأجهزتها، والعسكر بمخابراتهم، والعالم بحكوماته، سوف يقف يتفرج على هؤلاء العشرات الذين تسميهم العلماء، يقودون ملايين

العميان، فإن قالوا لهم أيمنوا أيمنوا، أو أيسرا أيسروا، ثم لا يجندونهم لما فيه مصالحهم، فأنت واهم، لن أقول ساذج. وإذا تصورت أن هؤلاء العلماء ملائكة أو أنبياء لن يستجيبوا لذهب المعز، ولن يخافوا سيفه، فأنت طيب لن أقول مغفل. وإذا تصورت أنه لا يمكن لأحدهم أن "يشتغلك" مستغلا جهلك فيبيع لك عمامة ولحية في مقابل السيطرة على حياتك، فأنت في مشكلة كبيرة، لن أقول متخلف، وربنا يشفي.

أكذوبة "إسلام بلا مسلمين"

"لا يصبح الحساء حساء، إلا بطبخ اللحم فيه. وإلا، فإنه مجرد ماء يغلي"

(١)

يقول أهل الطب النفسي إن الحيل النفسية الدفاعية هي أساليب هروبية من المواقف المؤلمة التي نعجز عن مواجهتها بأساليب مباشرة. فعندما نفشل في مواجهة الإحباط أو نفشل في حل الصراع نلجأ إلى هذه الحيل لتبرير فشلنا، وجعله فشلا منطقيا، له ما يبرره أمام أنفسنا وأمام الناس، فنتخلص من التوتر، ونتحرر من القلق والشعور بالذنب ونشعر بالارتياح ونتوافق مع الموقف.

(٢)

منذ أكثر من قرن، قال السيد جمال الدين الأفغاني جملة أعتقد أنه لم يكن يتخيل أن الألسن ستلوكها لمئة عام ويزيد. قال الرجل إنه رأى في أوربا "إسلاما بلا مسلمين"، بينما في رأى في البلاد

الإسلامية "مسلمين بلا إسلام". ويا لها من بلاغة صحفية تصلح مانشيتا في جريدة شبابية من النوع الممتاز.

إنني بالطبع أقدر صدمة الرجل، وأقدر أنه أدرك أن ما شاهده عند الغرب "الكافر" هو ما ينبغي للبشرية أن تسلكه حتى تتقدم. لكن كيف يكون المثال والنموذج "كافرا"؟

لقد أراد الرجل، ربما بحسن نية، أن يوفق الأوضاع فأطلق قولته التي تقرر ببساطة أن ما وصلوا إليه هو "الإسلام"! وهو الحل السحري المريح للضمير المخدر للأعصاب، الذي يطمئنك على المستقبل، لأنهم مهما بلغوا فإن المفتاح، في النهاية، موجود في جيوبنا، ليس علينا سوى أن نخرجه، ونصيح: افتح يا سمسم!

(٣)

ومما يدرسه طلاب علم النفس أن التوافق الناتج عن الحيل النفسية الدفاعية هو توافق مؤقت في معظم المواقف، لأن الحيل لا تحقق الأهداف المحبطة ولا تحل الصراع، إنما تشبع حاجات ثانوية تولدت عن الإحباط والصراع.

وبعبارة أخرى لا تعالج الحيل النفسية أسباب الإحباط ولا أسباب الصراع لكنها تعالج الأعراض الناتجة عنهما، وهذا ما يجعلها كالعقاقير المسكنة تخفف آلام المرض ولا تعالجه، فتعود الآلام بعد زوال تأثيرها.

(٤)

حسنٌ، دعنا نتساءل إذن عن ذلك الذي رآه الأفغاني في بلاد الفرنجة، واعتبره "الإسلام" خبط لزق، ما هو؟ ما هي تفاصيله؟

سيحدثنا الإخوة كثيرا عن أن إتقان العمل، والالتزام بالمواعيد، والاحترام المتبادل بين المواطنين، والعدل، والتراحم، والنظام، هي المبادئ التي ينادي بها الإسلام، ويا حبذا لو أنهم اجتهدوا في إيجاد نص، قرآن أو حديث، يؤكد أن هذه هي مبادئ الإسلام، لكنهم طبقوها في أوربا ولم نطبقها هنا، مع أننا بها أولى.

ودعني أصارحك بأن هذا المنهج في التفكير هو أقصر طريق نحو التخلف، والتكاسل. كما أنه نوع فاخر من المخدر نحقن به ضمائرنا حتى لا تسألنا عما فعلناه لنهضة بلادنا.

فكل هذه "الفضائل" هي مبادئ عامة ينادي بها الجميع، جميع الأديان، وجميع اللا دينيين، واللا أدريين، حتى السفاحون والقتلة وقطاع الطرق ومنشئو بيوت الدعارة، كلهم يدعون إلى العدل والرحمة والإتقان في العمل ... إلخ إلخ.

هل سمعت عن دين يدعو إلى القتل؟ هل قرأت عن مذهب يبيح السرقة؟ هل أخبرك أحدهم بفلسفة قائمة على عدم توقير الكبير والعطف على الصغير؟

ربما تجد من "يبرر" الانحراف عن هذه الفضائل، كمن يبرر قتل

الأعداء في الحرب، أو الكذب على الزوجة للحفاظ على كيان الأسرة. وفي الواقع، فإن جميع الأديان والأفكار والمذاهب تسوق تبريرات للخروج، أحيانا، وفي سياقات معينة، عن تلك المبادئ العامة التي تدعو إليها.

(٥)

والحيل النفسية الدفاعية عادات سلوكية مكتسبة ينميها الإنسان، ويستخدمها في البداية على مستوى شعوري، ثم يتعود عليها ويستعملها على مستوى لا شعوري، يأتيها دون وعي بالدوافع الكامنة وراءها. فالطالب الذي يبرر رسوبه في الامتحان لا يعي أنه يبرر فشله. ولا يدرك انه يخدع نفسه ويخدع غيره بهذه التبريرات.

(٦)

نعود للسؤال: ما الذي رآه الأفغاني في بلاد "الكفرة" من ملامح "إسلامية" صرفة، طبقوها هم، ولم نطبقها نحن؟

هل وجدهم مثلا يصلون الصلوات الخمس؟ أو يصومون رمضان؟ أو يطلقون لحاهم؟ أو يجبرون النساء على الحجاب؟ أو يحرمون

فـوائد البنوك؟ أو يقطعـون يد السـارق؟ أو يرجـمـون الزاني؟ أو غيرها من الأمور "المعلومة بالضرورة" من الدين؟

بالطبع لا.

وبالطبع أيضـا، فـإننا نؤكـد على أننا لا نقـصـد أن هذه الأمـور متخلفة. فهذا حديث آخر، ولا نريد كذلك أن نقول إن تركها هو السبيل الوحيد ناحية التقدم، فهذا حديث ثالث، غير أننا نشدد على أن أوروبا التي أدهشت الرجل وجعلته منبهرا إلى هذا الحد، أقامت نهضة على أسس ثقافية تخصها، تعبوا واجتهدوا وثاروا وضحوا بالدماء، وتعطشوا للعلم، وناقشوا ثوابتهم ومعتقداتهم، وعرضوها للنقد، وأدركوا أن الجمود هو عدو الحياة الأول، فتطوروا، ثم تأتي سيادتك لتضع ساقا على ساق، فتقول لهم بكل بساطة: قديمة! أنتم تستندون إلى أفكارنا.

قل لي:

من تخدع بهذا الكلام؟

أنت تخدع نفسك لا أكثر.

من تضر بهذا التفكير؟

إنك تضر نفسك لا غير.

قارن بين أوروبا في ذلك الوقت وأوروبا الآن، وقارن من جهة أخرى بين بلاد الإسلام وقتها، وبلاد الإسلام الآن. لقد ابتعدوا عنا بسنوات ضوئية، علما وعملا وحضارة وفنا، وحتى في كرة القدم،

بينما نحن ندور ونلف في الدائرة المفرغة ذاتها، مطمئنين إلى أننا الأصل.

(٧)

الطريف أن السيد جمال الدين الأفغاني، الذي افترض "إسلاما ثابتا" طبقه الغرب ولم يطبقه المسلمون، من أكثر الرجال الذين تعرضوا للاستبعاد من "الإسلام"، ولو بحثت في "جوجل"، صديقي الحميم، لوجدت آلاف المقالات التي تنزع عن الأفغاني صفة المسلم، وتعتبره ماسونيًا شيعيا بابيًا كافرا متخفيا ينشر الإلحاد في بلاد "المؤمنين". وأنه كان يشرب الشاي ويدخن التبغ!

هنه المسخرة تجعلك تتساءل: إذا كان الأفغاني لم يضمن مقعده هو من الإسلام، فكيف حجز مقاعد للغرب بحاله؟ عموما، ربنا يشفي.

ملحوظة: تنسب المقولة أحيانا للإمام محمد عبده، وأحيانا لآخرين، لكن هذا لا يشكل فارقا فيما نحن بصدده.

الشريعة والحدود وما إلى ذلك
(وهم اسمه "شرع الله")

كم مرة سمعت الإخوة يطالبون بتطبيق "شرع الله"؟ عن نفسي أسمع هذا المصطلح منذ نعومة أظفاري، رغم أنها لم تكن ناعمة يوما ما، فقد نشأت في أسيوط عاصمة النار والدمار كما كنا نسميها، وكان أعضاء الجماعات الأصولية منتشرين في المدينة، يقتحمون الجامعات لفض الحفلات، ويفرقون بين الطالب وزميلته (تعرضت للاعتداء على يد أحدهم عام ١٩٩٣)، ويطالبون بشرع الله.

في تلك الفترة شاهدنا شبابا يذهبون للجامعات على الإبل لأن السيارات بدعة، وشباب يحرمون لبس النظارات لأن النبي لم يلبسها، وسمعنا أعاجيب تحريمية لا تخطر على قلب بشر ولا جني حتى.

السلفيون الآن أقل عنفا، بدنيا على الأقل، ويتناقشون، أو يتظاهرون بأنهم يتناقشون. لذا، فإنني كلما تعرضت لأحدهم ممن يطالبون بتطبيق شرع الله، أسأله: ماذا تقصد بشرع الله؟ بالطبع

فإن الكلمة الأولى التي نسمعها جميعا: الحدود .. قطع يد السارق ورجم الزاني.

ربما كان محدثك أكثر وعيا، فيضيف بعدهما شيئا عن الزكاة بدلا من الضرائب، والبنوك الإسلامية بديلا عن البنوك الربوية، أو ما إلى ذلك.

طبعا هناك أكثر من مدخل لمناقشة هذا الطرح الذي يستخدم فيه الإخوة تشبيها صكه الشيخ الشعراوي في أواخر السبعينات، فكما أن صانع الغسالة أو الثلاجة هو أدرى الناس بكيفية صيانتها، فإن خالق هذا الكون هو الأدرى بما يصلح له ولا يصلح، ومن هنا، فلا سبيل أمامنا إلا أن نطبق شرع الله.

يمكننا القول مثلا بأن مجتمعاتنا تواجه مشاكل تحتاج علاجا جذريا، فيما أن ما يطرحونه باعتباره "شرع الله" لا يقدم سوى أن تحل "أشكال" محل أخرى. مثلا، هو يطالب بقطع يد السارق، وكأن القوانين الحالية ترشح السارق لجائزة الدولة التشجيعية! المعنى هنا أنه لا فارق كبيرا بين قطع يد السارق، وسجنه، بينما المشكلة أن السرقة، دعنا نسميها الفساد، قد اتخذت أشكالا تلزم وضع نظام كامل مختلف عن النظام الحالي، وليس تغليظ العقوبات.

إن فكرة تغليظ العقوبات التي تعتمد عليها فكرة ما يسمونه "شرع الله" تشبه قانون المرور الذي تم وضعه قبل سنوات، والذي يعاقب

المخالف بالحبس والغرامات الضخمة، والتي لم تؤد إلا لزيادة الرشوة، في حين كان المطلوب هو إيجاد حلول جذرية لتضاعف أعداد السيارات في مقابل ثبات المساحة تقريبا.

على أية حال فإن مناقشة مدى صلاحية هذه الأفكار ليس مجديا طالما أنهم مقتنعون بأنها أفكار الله، فنناقش إذاً مدى صحة هذه النسبة، نعني نسبة هذه الأفكار لخالق الكون الذي أحاط بكل شيء علما.

ونبدأ بالطبع من القرآن الذي يؤمن المسلمون بأنه كلام الله مباشرة، وبأنه محفوظ منه ضد التلاعب والتزوير، ونتساءل عن كيفية سن قوانين مستمدة من القرآن الكريم.

ولنتناول المثال الأثير والمفضل لدى طلاب الشريعة، وهو قطع يد السارق، وربما كان هذا المثال هو الذي يتدافع إلى الذهن باعتباره أوضح مثال ورد في القرآن، ولا يحتاج تأويلا كثيرا بحسب تصورهم، وهو المثال الأبرز الذي تنطبق عليه القاعدة الذهبية: لا اجتهاد مع النص.

حسنٌ، لقد ركزنا كثيرا على فكرة قطع اليد، لكننا لم نناقش مفهوم "السارق والسارقة"، إننا نحتاج أولا أن نفهم معنى السرقة، هل يدخل فيها مثلا سرقة الألحان والإبداع والأفكار والبحث العلمي أم لا؟

هل يدخل ضمن مفهوم السرقة أشكال حديثة له مثل الاختلاس وإهدار المال العام، والمخالفات المحاسبية، والتربح، واستغلال النفوذ، وتسهيل الاستيلاء على المال العام، والنصب، وما خفي كان أفدح.، مع التأكيد أن هذه الأمور هي الأخطر من السرقة المباشرة.

هل للسرقة نصاب معين؟ بمعنى هل تتساوى سرقة خمسين جنيها من محفظة أحدهم مع سرقة المليارات من خزينة الدولة؟

هل هناك شروط تمنع تطبيق العقوبة؟ بمعنى هل توجد حقوق معينة يجب أن يحصل عليها المواطنون (الرعايا) ثم نبدأ في حسابهم، أم أنه تجب عقوبة السارق في أية حال، وعلى أي نحو؟

ماذا إذا تنازل المسروق عن القضية، أو أعاد السارق النقود التي سرقها، ماذا إذا كانت السرقة من الدولة؟ ماذا إذا قطعنا يد أحدهم، ثم اكتشفنا أنه لم يسرق، كيف نرد عليه يده؟

كيف نثبت أصلا جريمة السرقة؟ مع ملاحظة أن هذه ليست مسألة فرعية، إنها في صميم الموضوع، بمعنى أن إقرار طريقة دون غيرها يؤثر بلا شك على تحديد مفهوم السرقة.

عشرات الأسئلة التي تواجهنا إذا حاولنا تطبيق عقوبة قطع اليد على السارق، وقبل أن تشرع في تقديم إجاباتك، أود أن أقول لك إن أية إجابة ستقدمها هي إجابة بشرية مئة بالمئة لا دخل للخالق بها، حتى وفقا لتصورك عن الإسلام.

وهكذا فإنك ستفعل كما فعل الفقهاء من قبلك، جلسوا وفكروا وسألوا وأجابوا، وعندما انتهوا من وضع "قانونهم" وفقا لما فهموه قالوا: هذه أوامر الله.

ولكن ماذا إذا جلس قوم آخرون، فبحثوا وتدبروا وتوصلوا إلى إجابات مختلفة، وقانون مختلف تماما، ألن يقولوا أيضا إن هذا كلام الله؟

أين كلام الله؟ هل هو الحنبلي أم الشافعي أم الحنفي أم المالكي أم المذاهب الأخرى التي لم نسمع عنها لأنها لم تنجح في إيجاد أتباع كثيرين؟ هل كلام الله هو الذي يقوله الأشاعرة أم المعتزلة؟ ابن تيمية أم ابن حزم؟

أين كلام الله؟ هل هو كلام بن لادن أم الدكتور أحمد الطيب أم الشيخ الغزالي أم محمد بديع أم خيرت الشاطر أم حازم صلاح أبو إسماعيل أم عمرو خالد أم أحمد صبحي منصور أم الشيخ أبو العزايم؟

أين نضع الرأي القائل بأن "المقصود" من الآية هو "قطع اليد" بمعنى كفه عن السرقة، وليس بالمعنى الحرفي، بدليل أن النص: "اقطعوا أيديهما" بالجمع، وليس "اقطعوا يديهما" بالمثنى، فنحن نتحدث عن اثنين لا عن جماعة؟

أين تضع رأي المسلمين الذين يقولون إن الله يريد التنوع

والاجتهاد والتطور الدائم، لذا فإنه وضع إطارا أخلاقيا يقضي بضرورة معاقبة السارق، ثم تركها مفتوحة لكل مجتمع، وأن ذكر العقوبة بأنها قطع اليد جاء لمخاطبة البشر وقت نزول القرآن، حيث كانت هذه هي طبيعة العصور الوسطى؟

كالعادة، عشرات من التصورات والأفكار البشرية المحضة، القابلة للأخذ والرد، لكنك تنتقي منها ما يناسبك، والذي تغيره من مرحلة عمرية إلى أخرى، ثم تقول: "مش أنا اللي باقول، ده ربنا هو اللي بيقول".

على أن هذا ليس كل شيء، فنحن لا نحتاج بحثا كثيرا حتى نعرف أن كل ما جاء في القرآن تقريبا، تستكمله، أو توضحه، أو تفصله السنة النبوية، والمقصود بها ما ورد عن الرسول الذي جاء برسالة القرآن، لنجد أنفسنا مضطرين اضطرارا إلى اعتبار القرآن والسنة مصدرا متكاملا للتشريع.

ومن هنا يأتي تشديد الجماعات السنية على السنة وأهميتها، من هنا نفهم أن معظم شيوخ السلفية هم من علماء الحديث، من هنا نفهم لماذا الإصرار على إخراج القرآنيين من الإسلام، من هنا نفهم سر تكفير الشيعة، ثم تكفير المتصوفين باعتبارهم أبوابا خلفية للتشيع.

والحديث عن الحديث متشعب ومعقد، وعادة ما يتحدث فيه

البشر بحرص شديد، لكننا هنا لن ندخل تلك الغابة المتشابكة من الروايات والروايات والروايات التي كتبت جميعا بعد قرون من وفاة صاحبها، صدق من هذه الروايات ما شئت، وكذب ما شئت. لكن قل لي كيف تستنبط أحكاما وقوانين من تلك الروايات غير المؤرخة وغير الموثقة، من يدريني أي حديث جاء قبل الآخر، وأي سياق قيلت فيه هذه العبارة أو اتخذ فيه هذا الموقف.

في كل مرة أسال أحد أهل السنة، هل تؤمن بأن هناك أحاديث غير صحيحة تم دسها، يجيبني بـ: "نعم" حدث هذا. وعندما تسأله: وكيف تعرف أن هذا الحديث صحيح أو ضعيف أو كاذب؟

يجيبني بأن "العلماء" وضعوا قواعد، واختاروا الأحاديث بناء عليها. إذا أنت تقرأ العلماء وليس النبي.

(بالمناسبة: ما معنى حديث ضعيف؟ ألا يوحي هذا التعبير بأنه "ربما" قال هذا وربما لا وإن كان النفي أقرب)

لقد وقعت أحداث معينة في القرن الأول الهجري، وقبله بقليل، وإنها ليست حدثا بل مسيرة إنسان يؤمن أكثر من مليار نفس بأنه نبي من الله. عاش ٦٣ سنة وحمل رسالة وأسس دولة، ولم يتم تسجيل هذه الأحداث حينها، بل بدأ تسجيلها بعد وفاته، على خلفية صراعات طاحنة بين أصحابه وأتباعهم، وهم الذين يجب أن نأخذ عنهم سيرته ومسيرته.

وخلال عملية التسجيل هذه تعرض الجميع من الجميع للتكفير والقدح والاتهام بالكذب والتدليس والخيانة وقتل بعضهم البعض، ثم تأتي أنت فتقول لي: خذ هذا الكتاب إن فيه صحيح السنة، وهذا ليس للاسترشاد والاستئناس، إن لها قوة النص القرآني ذاته، وهي جزء لا يتجزء من مصدر التشريع الإلهي.

لسنا هنا بحاجة للتأكيد على أننا لا نرفض إيمان أي شخص بأي شيء، اختر لنفسك ما شئت، نحن فقط نشير إلى ضرورة وأهمية ووجوب قبول كل "الإيمانات" الأخرى، وعدم ادعاء احتكار اليقين المطلق، وبالتالي فإن أي منظومة قانونية أو فكرية أو "شرع" فهو شرع من يقدمه وليس "شرع الله".

نعم للتكفير

منذ عقود طويلة والمعركة قائمة بين المستقبل والماضي، بين التقدم والتأخر، بين أولئك الذين يسعون لاستنساخ تجارب مرت عليها القرون، وأولئك الذين يستشرفون تجارب خاصة بنا تضعنا في مكان لائق على خريطة العالم.

وبداية من الإمام محمد عبده مرورا بطه حسين وعلي عبد الرازق، وليس انتهاء بنصر حامد أبو زيد، بذل أساتذة كبارا جهودا جبارة في نقد الخطاب الديني، ومحاولة تفكيكه، وتحليله، بهدف التطوير والتنوير والتثوير، والوصول إلى أفضل فهم ممكن للتراث الإسلامي، من خلال القطيعة المعرفية من نصوصه، ومحاولة إعادة تأويله على نحو عصري.

غير أننا نقول الآن، في عام ٢٠١٢، إن المعركة حتى الآن مازالت تدور على أرض الخصم، فكل تلك المحاولات العظيمة جرت انطلاقا من أن هناك "إسلاما حقيقيا"، وأن المشكلة في التأويل الخاطئ له على أيد شيوخ التطرف والفتنة ودعاة التعصب. حتى ساد مفهوم "النظرية صح والتطبيق غلط"، وأصبح هناك تسابق حول الوصول إلى هذا المفهوم الصحيح.

علينا، إذًا، نقل المعركة إلى أرض جديد، وفضاء مختلف. ليس فيه يقين نحاول الوصول إليه، وإنما الكشف عن استحالة وجود هذا اليقين، وبالتالي بات من الضروري أن نزيح أولا ما يترتب من آثار على الإيمان بهذا الطرح أو ذاك، فالقضية ليست في فهم صحيح أو خاطئ، وإنما في محاولة فرضه على البشر.

إننا نؤمن بأنه كلما أوغلنا في النصوص، من أي منطق كان، فإننا نضيف للرصيد السلفي لا نخصم منه، لأننا نكرس مفهوم النص الواحد الصحيح الواضع غير قابل للنقاش، إننا نبحث عن نافذة جديدة يدخل منها الهواء حتى لا نختنق بإسفكسيا النص.

ونرى أن أول ما يجب تغييره، هو شعار: "لا للتكفير"، فهذا الشعار ينطوي على حسن نية، نستطيع الآن أن نصفها بالسذاجة، فهو قائم على فكرة مفادها: لا تستبعدني من الدين، فأنا مؤمن مثلك.

على أن هذا الشعار وذلك المفهوم يؤديان بنا إلى عكس الوجهة التي نقصدها تماما، فهي، أولا، تقسم البشر إلى مؤمنين وكفار وتطالب بعدم اعتبار البش من النوع الثاني، على أساس أن كل البشر مؤمنون، وإن كان كل بطريقته. كما أنها تمنح الأولية على نحو مطلق للإيمان والمؤمنين، فهي تنطوي بشكل ما على أن الكفر خطأ وخطيئة يجب التبرؤ منها.

ومن جانب آخر فإنها تجبر المؤمنين على قبول فكرة أن كل الآراء

تمثله، وتمثل ما يؤمن به، طالما أن أصحابها يرفعون شعاره، فإذا كنت مسلما فأنا مجبر على أن أقبل كل من يقول إنه مسلم، حتى وإن كان ينكر أهمية الصلاة مثلا. أو إذا كنت مسيحيا فإن علي اعتبار كل من يقول إنه مسيحي كذلك حتى لو أهدر سرا كالاعتراف أو التناول.

وتصل السذاجة حدها الأقصى حين نطالب المسلمين بعدم تكفير المسيحيين، أو العكس، فنطالب المسيحيين باعتبار المسلمين كفارا.

والواقع يقول إن كلا منا مؤمن بشيء وكافر بآخر. نعم، المسيحيون كافرون بالإسلام، والمسلمون كافرون بالمسيحية، والملحدون كافرون بكل هذا، أين المشكلة؟

لكن سؤالا بديهيا يطل برأسه ها هنا: إذا كان شعار "لا للتكفير" به كل هذا العوار، فمن صكه ولماذا انتشر بين العلمانيين والملحدين؟

الواقع أن هنا مربط الفرس، فقد ظهر هذا الشعار في وقت كانت الأصولية الإسلامية المسلحة في عنفوانها، وكان تكفير أحدهم معنى تهديد حياته مباشرة، وبالتالي، فإنه كان موجها لهؤلاء المغيبين، والمتأثرين بالمغيبين، وهو أشبه بمناشدتهم عدم اعتبار البشر كفارا، بمعنى عدم قتلهم، أو الدعوة إلى قتلهم.

أما الآن، فإننا نرى أنه من الواجب تطوير الخطاب، فليس من المعقول أن أناشد أحدا أن يلحقني بدينه، اعتبر من شئت مسلما

واعتبر من شئت كافرا، أنت حر في هذا، اعتبر كل البشر كفارا وأنت المؤمن الوحيد، واقبض على دينك كالقابض على الجمر، أنت حر وحر وحر. لكن بشرط ألا يترتب على هذا أي نوع من أنواع الإيذاء لمن تعتبره كافرا.. ولكن، ماذا إذا كان ديني، الذي أنا حر في اتباعه، يفرض علي قتل المخالفين لي، والكفار بما أومن؟

عليك إذا أن تعلن هذا لبشر ، وأن تعلن أن الإسلام يأمرك بقتال مخالفيه، ولا تقل لي إن الإسلام هو دين الحريات، وأنه جاء رحمة للعالمين وما إلى ذلك، أعلن جهادك واضحا شجاعا، وقل أنا أريد أن أخضع العالم، وأستعيد فكرة: أسلم تسلم.

لا تغضب حين أقول لك إن الإسلام انتشر بحد السيف، وعن طريق تخيير البشر بين الدخول في الإسلام، ولو ظاهريا، أو أن يدفعوا لك أموالهم وهم صاغرون، أو يموتوا.

أعلن بوضوح أنك ضد مواثيق حقوق الإنسان، وأنك ترفض الدخول في جميع المعاهدات التي تمت بناء عليها، ولا تكن مدلسا حين تقول إن إسلامك سبق بها قبل ١٥٠٠ عام.

عزيزي المواطن المسلم: اعتبرني كافرا كما تشاء، لكن لا تذهب بي إلى السجن وفقا لقانون أنت ترفضه، فتقول إنني أزدريك وأزدري دينك لمجرد أنني أعلن أفكاري، دون أن أمسك أو أمس دينك بسوء.

عزيزي المواطن المسلم: من أنت؟ من أنت؟

الإعجاز العلمي
(لا للتفكير)

حسن، لدينا الآن عبارة فريدة بسيطة مدهشة: "**الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة**". وبالطبع فإن آلاف الإسهامات جرت في هذا الصدد، الكثير منها متفق، ويدعم فكرة وجود إعجاز علمي في القرآن والسنة، والقليل يرى أن هذا مستحيل، ولا يعدو كونه مجرد محاولة للتغلب على الشعور بالنقص (**ارجع إلى مقالنا المنشور في هذه الكتاب: "خرافة إسلام بلا مسلمين"**)

غير أننا هنا لن نناقش هذا الأمر، فنحن لا نحاول مناقشة العقيدة كما اتفقنا، وإنما سنناقش انعكاسات هذا على حياة المسلمين في بلاد الإسلام، في عدة نقاط نراها مهمة، حتى لا يصبح الإيمان قائدا إلى التأخر الذي نعيشه علميا وفكريا، وروحيا حتى:

١- ينفق المسلمون سنويا ملايين الدولارات، وربما مليارات، في إثبات أن القرآن يحتوي إعجازا علميا، هيئات عالمية، وندوات، مؤتمرات، كتب، أسفار، جرائد كبرى تخصص صفحات كاملة،

وكل هذا .. لماذا؟

هل يؤدي هذا مثلا إلى طمأنة المؤمنين على صحة إيمانهم؟ وهل معنى هذا أنه في حال خلو الكتاب والسنة من إعجازات علمية يعني أنهما على خطأ؟ ألا يكفيك اعتقادك بأن هذا كلام الله؟ أم هل عندك شك في هذا تحاول دفعه بهذه الطريقة؟

هل تحاول دعوة غير المسلمين إلى الإسلام؟ لكن قل لي: كم مليونا نجحت في إقناعهم بهذه الطريقة، الواقع يقول إن أكثر دين يضيف إلى رصيده متحولين من أديان أخرى هو البوذية، رغم أن البوذيين لا ينفقون مليما على إثبات الإعجاز العلمي عند بوذا.

ولو أن المسلمين خصصوا ربع ما يخصصونه لقضية الإعجاز العملي في القرآن والسنة، للعلم نفسه، لربما استطاعوا جذب مؤمنين جدد، بناء من منطق القوة والبأس والتقدم.

٢- لقد أدى التفتيش المنهجي عن وجود إعجاز علمي في القرآن والسنة، في حالات كثيرة، إلى ليّ عنق الاكتشافات العلمية أحيانا، وليّ عنق النص الديني أحيانا أخرى، وليّ عنق الاثنين غالبا حتى يحدث التطابق بينهما، والأمثلة كثيرة ومتعددة. مثلا، تحدث زغلول النجار عن جملة في سورة التكوير تقول: "وإذا البحار سجرت"، بمعنى اشتعلت، مدعما بحديث نبوي يقول: "لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز في سبيل الله

فإن تحت البحر نارا وتحت النار بحرا"، فيقول إن هذا إعجاز لأن العلماء أثبتوا أن كل البحار والمحيطات تحتها نار.

لقد لوى النجار هنا عنق "حقيقة" علمية، ولوى عنق النصوص، لتقول أنت في النهاية "سبحان الله"، مع أن أي بحث بسيط للتثبت من "الحقيقة" العلمية، التي قد يثبت فشلها لاحقا، سيكتشف عدم دقة كلام المذكور؛ فالمعلومة تقول إن البحار والمحيطات جميعا عبارة عن تشكيلات في القشرة الارضية يجري فيها الماء، سمك القشرة الارضية حوالي ممبم كم، وتحتها طبقة أخرى تسمى (غخفـهعز) يبلغ سمكها أكثر من ٢٠٠٠ كم، وهي طبقة صلبة في أغلب الأوقات، وتتكون من الحديد و المجنيزيوم والألومنيوم والسيليكون والأوكسيجين.

النار التي في بطن الأرض موجودة في ال ذقهز وتحديدا في ال قوهزم ذقهز وهو نار منصهرة وحتى ال ضفـفـزم ذقهز صلب هو الآخر بفعل الضغط.

يعني لا يوجد نار تحت البحار بل هناك طبقة فاصلة بين النار و البحار هي ال غخفـهعز. وهو ما يعني أن البحار ليست مسجورة.

كما لوى نص القرآن، فسورة التكوير تتحدث عما سيحدث يوم القيامة، إنها تتحدث عن أهوال ستخالف فيها الموجودات طبيعتها، وهي أهوال ممتدة في القرآن الكريم، خاصة المكي، فالشمس

ستأتي من الغرب، وستتكور، والكوكب ستنتثر، والبحار ستشتعل، هذا يوم القيامة، مما يعني أن هذا ليس واقعا في الوقت الراهن، أما الحديث المنسوب للنبي، فهو حديث يصنفه المحدثون باعتباره حديثا منكرا، ولو كان حديثا صحيحا لكان حراما على المسلمين أن يركبوا البحر إلا للأسباب المذكور فيه. ثم إن "العلم" الذي يستشهد به النجار لم يتحدث عن بحار أخرى تحت النار الصلبة في مركز الأرض.

إننا إذا اتبعنا منهج زغلول النجار لامكننا إيجاد إعجاز علمي في كل الكتب القديمة مقدسة كانت وغير مقدسة. فكل جملة يقولها شاعر قابلة للتأويل بحيث تناسب قانونا علميا ما، وفي النهاية لن يكون هناك قيمة لأي شيء.

٣- ومن المشكلات المتعلقة بفكرة التفتيش عن إعجاز علمي في القرآن والسنة أنها تعطي قيمة علمية لمن هم ليسوا كذلك، انظر إلى زغلول النجار، لم يتساءل الناس عن إمكانياته في العلوم الطبيعية من جهة، واللغة العربية من جهة أخرى، وإنما نظروا فقط إلى المسبحة والزبيبة، وفي أنه يبحث في شأن من شئون القرآن، وأذكر أنني أجريت معه حوارا قبل سنوات، وسألته عن العلوم المتخصص فيها، ففوجئت بأنه يعمل في مجال البنوك الإسلامية، كل ما هنالك أنه "درس" الجيولوجيا

قبل عقود، في حين أنه لا تجمعه أية صلة باللغة العربية من قريب أو من بعيد، لقد قال لي نصا إنه درس اللغة العربية في الكُتّاب (النسخة القديمة من رياض الأطفال)، وهو ينتهز الفرصة ليطالب بعودة الكتاتيب.

يأتي هذا في الوقت الذي لا يستمع المسلمون إلى رجل مثل الدكتور الراحل أحمد مستجير، الذي كان أحد القامات العالمية في هندسة الوراثة إضافة إلى تأليفه كتابا مهما في موسيقى الشعر العربي، وهو يقول إنه لو وجود لما يسمى بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

٤- التعميم، هذا هو ما جنيناه غالبا من إصغائنا لتلك الأصوات التي تحدثنا عن وجود إعجاز علمي في القرآن الكريم والسنة والنبوية. مثلا، هناك جملة تتردد على ألسنة هؤلاء تقول: "لقد أثبت العلماء أن ....."، دون أي تحديد، أي علماء في أي علم في أي فرع منتمين لأي مدرسة علمية، وهو ما يجعل نظرتنا إلى العلم مشوشة وقاصرة، إننا نظن أن العلماء هم جماعة من البشر يجلسون معا، فيكتشفون ثم يقررون "الحقيقة"، في حين تتجه البشرية كلها إلى التخصيص الدقيق، وتقسيم العمل.

أذكر أن صديقا لي نشر على موقع فيسبوك دراسة وهمية ذكر فيها أن "العلماء أثبتوا" أن الزواج باثنتين يسبب السعادة للزوجة الأولى، ذاكرا أنهم أجروا استطلاعا على ألف امرأة ألمانية، وكانت

النتيجة أن تسعين بالمئة منهن أكدن أنهن سعيدات بكونها زوجة أولى لرجل متزوج من غيرها.

حظيت الدراسة المزعومة بنسبة هائلة من الاطلاع الشير واللايك والكومنتات المكبرة المسبحة دون أن يتوقف أحدهم للحظة، ليتذكر أو ليعرف أن ألمانيا تجرم تعدد الزوجات أصلا، فأين هن السيدات اللاتي شاركن في استطلاع الرأي؟

٥- في تقديرنا يؤدي التفتيش عن إعجاز علمي في النصوص المقدسة إلى إعاقة للتفكير، والكسل في طلب العلم، لأن التعامل مع القرآن باعتباره نصا علميا، أو له طابع علمي، يجعلني أشعر أنني قد وصلت للمنتهى، مع أن الأساس في العلم هو التغير والتطور والشك والبحث. مثلا، عندما كان العالم يظن أن عدد الكواكب التي تدور حول الشمس هي سبع كواكب فقط، خرج بعض منظري الإعجاز لعلمي ليقولوا إن هذه هي السموات السبع، ثم اكتشفت البشرية كوكبين آخرين، ولو أن علماء وكالة ناسا للفضاء كانوا مؤمنين بالإعجاز العلمي، لما واصلوا بحوثهم عن كواكب أخرى، إن التفكير بمنطق أن هناك إعجازا علميا في القرآن يفتح الباب لتساؤل عالمي: لماذا لم يكتشف المسلمون قانونا علميا واحدا إذا كان لديهم كتاب يضم بين دفيته كل تلك المعجزات؟ .

فلنتحدث إذن عن "السيكو سيكو"

في عام ٢٠٠٥، كنت أعمل في جريدة الدستور، ولأن رئيس تحريرها إبراهيم عيسى كان يدعم جماعة "الإخوان المسلمون" وقتها، فقد استضاف المرشد العام للجماعة السيد محمد مهدي عاكف في لقاء مع أسرة تحرير الجريدة لعرض أفكار الجماعة.

توجه أحد الزملاء الحضور بسؤال إلى المرشد حول الحرية الشخصية في المفهوم "الإسلامي"، وأتذكر بدقة أن عاكف أجاب بسرعة وبحسم وبشيء من العصبية: يعني يا أخي إنت عايزنا نبيح الزنا؟

تعجبت وقتها من إجابة الرجل، فالسؤال لم يتطرق إلى أية أمور جنسية، و"الحرية الشخصية" عنوان عريض، تندرج تحته أمور كثير مثل حرية الرأي والتعبير والعقيدة والتفكير وغيرها، فما الذي وجه بوصلة "المرشد" إلى الجنس دون غيره؟

غير أن العجب سيبطل تماما عندما تتابع، ولو قليلا، المساحة التي يحتلها الجنس في البرامج الدينية، وخطب المشايخ، وفتاوى المفتين، وكذلك مدى عمق التفاصيل التي يدخل فيها هؤلاء، حتى تظن أن تنظيم المجتمع جنسيا على نحو ما هو الفيصل في تقدمه

أو انهياره.

وبالطبع فإننا لا ننكر أهمية الجنس في حياتنا، كما لا ننكر أننا جميعا مشغولون به باعتباره العملية الأكثر حيوية من بين أنشطتنا، غير أننا هنا نشير إلى أن هناك فارقا بين الاهتمام والهوس. بين الرغبة في التنظيم، والرغبة في التحطيم. بين محاولة فهم الإنسانية ومحاولة أن "نكفي على الخبر ماجور"، بين البحث عن إنسان أكثر سعادة ورقيا والبحث عن إنسان معقد يفكر بأعضائه التناسلية.

ولنبدأ من البداية التي أقرها المرشد حول مقاومة الزنا، التي هي مسوغ لوأد الحريات الشخصية. والزنا، كما نعلم جميعا، هو ممارسة الجنس خارج إطار الزواج. ونرى أن التصور الإسلامي الذي يصلنا من مختلف الفرق والمذاهب والآراء يتبع فكرة تقسيم جميع الممارسات الجسدية تحت أحد العنوانين الزواج/الزنا، رغم أن الواقع يخبرنا بأن هذا الأمر ليس دقيقا، فبعض أشكال الزواج هي زنا مقنع (**الزواج العرفي - بيع الفتيات للعرب والخلايجة - المصاهرة لخلط أموار بأموال - زواج المسيار - زواج المتعة - زواج الهبة - ..... إلخ**) في حين أن بعض ما يعتبرونه زنا هو للزواج أقرب، مثل العلاقات الحرة التي لا يوثق أصحابها علاقاتهم في وثائق رسمية خاصة في الطبقات الاجتماعية العليا، وبعضها يلتزم أصحابها بالعلاقة أضعاف التزام المتزوجين رسميا، وهو ما لا يمكن تساويه مع الدعارة أو إقامة علاقات متعددة داخل مؤسسة الزواج

وخارجها.

وإذا نظرنا خارج بلادنا قليلا، فسنجد أن الأمور متسعة لجميع الأطروحات، فهناك زواج ديني في الكنيسة أو في المسجد، وزواج مدني موثق في الشهر العقاري (أو ما يوازيه) وهناك من يكتفون بإعلام الأهل ولا يقيمون مراسم كنسية أو قانونية، وكل هذه الأشكال يترتب عليها حقوق وواجبات، حتى إن المحاكم أحيانا تطبق قواعد الزواج بمجرد أن يثبت أن الرجل والمرأة تبادلا كلمة "أحبك".

على أنه من حق المسلم بالطبع أن يختار لنفسه ما شاء من أشكال التنظيم، لكن هناك ملاحظات نود أن نشير إليها بخصوص ما يصلنا من الإسلاميين حول الجنس والذي منه نجملها فيما يلي:

- يحرم "التصور الإسلامي" الزنا، لكنه لا يحدده، والحاصل في بلد كمصر أن الوازع الاجتماعي أسبق من الوازع الديني، فـ"الإسلاميون" يبيحون تعدد الزوجات في حين يرفضه المجتمع. ومن ثم، فإن تعدد الزواجات لا يعتبر ظاهرة في مصر، وإذا حدث فله سياقات خاصة لا يمكن القول بعمومها. كما أن "الإسلام" يبيح الزواج العرفي في حين يرفضه المجتمع. و"الإسلام" يحرم الاختلاء بالخطيبة، في حين لا يجد المجتمع حرجا في ذلك، وهلم جرا.

على أن هذا لا يعني أن الواقع الاجتماعي متحرر من السلطة الدينية، بالعكس، إن الدين، بالمفهوم الأصولي، يلعب دورا كبيرا في

كبح جماح المجتمع، ويمنعه كثيرا من مواكبة التطور، وعليه فإن المجتمع يقع أسيرا لهذه الحيرة بين الإنساني والديني، وهو ما يسبب ذلك الهسس الجنسي الذي نعيشه جميعا.

- لا ينشغل الإسلاميون بكيفية نشر تصورهم قدر اهتمامهم بكيفية فرضه، فهو لا يبحث عن الوسائل التي تحبب البشر في شكل الأسر المسلمة، وإنما يتوعد مخالفي هذا التصور بالرجم والجلد، كما أنه مشغول بكيفية تشكيل رقابة تمنع الناس من مخالفة "الشريعة". ولنا أن نعرف أن ألمانيا مثلا تجرم تعدد الزوجات قانونا، ومن يفعل ذلك فإن عقوبته الحبس، على أنهم لا يراقبون الناس في فراشهم لمتابعة مدى انصياعهم للقانون، كما أن رجال الدين هناك لا يخوفون البشر بالويل والثبور وعظائم الأمور، بل إنهم يجتهدون ويثقون في علماء الاجتماع حتى يكتشفوا الوسائل التي تجعل المواطن الألماني يكره فكرة تعدد الزواجات نفسها، بالطبع فإن الأمور ليست مثالية، لكن المؤكد أنه لا توجد لديهم مشكلة في الالتزام بالقانون.
- يعتبر التنظيم "الإسلامي" للأمور الجنسية أن المرأة مسئولة مسئولية تامة عن كل شيء، فهي التي يجب أن تثير زوجها وتشبع رغباته، ويجب ألا تثير غرائز الرجال الآخرين. بينما الرجل ضعيف، قابل للاستثارة على أهون سبب، ولا يمكن لومه على ذلك. باختصار إنه يتعامل مع المرأة باعتبارها مادة

الجنس، وبالتالي فإن مهمته كرجل دين هو الإجابة عن سؤال: كيف يقضي الرجل حاجته الجنسية من المرأة؟ بدلا من سؤال: كيف يقيم الرجل والمرأة علاقتهما الجنسية معا، ولعلنا نتذكر جميعا: إيه اللي وداها التحرير؟ وإيه اللي لبسها عباية بكباسين؟

- تأسيسا على النقطة السابقة فإن "الإسلاميين" يجتهدون في مقاومة الزنا، ثم مقاومة الطريق إلى الزنا، وأي طريق "قد" تؤدي إلى الزنا. كما أنه يعطي الرجل حق التصرف فيما يخصه من الشريعة، وفيما يخص المرأة أيضا، وهو ما يتضح في النقاط التالية.
- يحرم الإسلاميون الاختلاط، وكالعادة سيلجأون إلى نص يؤيد ذلك، سيذهبون إلى القرآن، ولن تستوقفهم أية إشارة إلى أن هناك نساء كن يشاركن في الحياة العامة، وكن يجادلن حتى الرسول نفسه. ثم سيقرأ السنة، ولن يمر على أية قصة احتوت على أي دور لأي امرأة. ثم يعرج على قصص الصحابة والتابعين، ولن يتمهل عند قراءة أي نقطة تبدو صالحة لتأسيس فهم عصري للعلاقة. فقط سيخرج بأنه ما اختلى رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما.

نقول هذا رغم أننا لا نميل في هذا الكتاب إلى تسييد أن النظرية صحيحة والتطبيق خطأ، ولا إلى أن الإسلام الصحيح يقر

بكذا وكذا، غير أننا نحاول فهم كيف يعمل يعمل عقل الإسلامي في القرن الحادي والعشرين.

إنه لن يتعامل مع أية تأويلات لنص: "ما اختلى رجل بامرأة"، كأن يقول أحدهم أن مفهوم الاختلاء غير قاطع الدلالة، وان العرب كانوا يستخدمونه بالمعنى الجنسي فقط، وبالتالي فإن معنى النص أنه إذا زنا رجل بامرأة فإن الشيطان ثالثهما، وهو ما لا علاقة له بالاختلاط.

إنه يصادر كذلك على أن يقول أحدهم إن النص لم يحرم الاختلاء، وإنما حذر من الشيطان، بما يعني الانتباه والتماسك، وليس عدم الاختلاء، الذي يقود إلى عدم الاختلاط الذي ربما يقود إلى تحديد إقامة المراة في المنزل، وتعطيل نصف المجتمع أو أكثر عن العمل، وعن تجربة شخصية أقول إنني عملت مدرسا للغة العربية (لغير الناطقين بها) وكنت أذهب لتدريس فتيات وسيدات في بيوتهن، فنقضي وقت الدرس، ساعة أو ساعتين أو أكثر، ولم يحدث، ولو مرة واحدة، أن تحركنا في اتجاه آخر غير هدف الدرس، أظن أن هذا هو "الطبيعي"؟ أليس كذلك؟

● في سبيلهم لقمع "الزنا"، يرتكب "الإسلاميون" جرائم بشعة، مثل جريمة ختان الإناث، حيث يأتي أحدهم فيقتطع جزءا حساسا من جسد ابنته، وهو سعيد وفخور. إذ إنه يسهم بذلك في طهارة ابنته وعفتها!

تصدر وثيقة رسمية عن منظمة الصحة العالمية بأن ختان الإناث يؤدي إلى أضرار بالغة، فيردون أن هذه حرب على الإسلام، يخرج طبيب مسلم مثل الدكتور السوري لؤي خدام فيشن حملة ضد ختان الإناث ويفندها طبيا، فيأتي مشايخ يتحدثون عن الفوائد الطبية للختان، فيصدقون المشايخ ولا يصدقون الطبيب.

وبعيدا عن صحة دعاوى الإسلاميين من عدمها، فإن ختان الإناث مصادرة لحق هذه البنت في الاختيار مستقبلا، هل هي بهيمة مثلا ليس من حقها أن تختار، أصلا، هل ستستمر مسلمة أم لا؟ أو أنها ستختار الختان من عدمه؟ هل تعرف لماذا؟ لأنك تعرف أنها لن تختاره مهما حببتها فيه. يا لها من مأساة.

- لم يؤد قمع ما يعتبرونه زنا في أي دولة إلى إقامة المجتمع الذي ينشدونه، فمن انتشار الدعارة في إيران إلى الاعتداء على الأطفال، وأحيانا الكبار، في السعودية. وفي مصر لا تخلو صحف الحوادث يوميا من جرائم قامت بسبب الجنس، سواء كانت ناتجة عن خيانة زوجية، أو صراع على سيدة، ناهيك عن طوفان التحرش الذي يكثر في أعياد المسلمين. وفي كل البلدان العربية تقريبا توجد ظواهر "انحراف" جنسي عامة، والمفارقة أن أقل البلدان العربية التي تعاني من هذا هي البلدان التي انفتحت، وتخلت، كمجتمع، عن تلك النظرة الضيقة للحياة باعتبارها إما زواجا وإما زنا، تونس نموذجا.

- أما عن الحجاب والنقاب وما إلى ذلك، فحدث ولا حرج، والمشكلة ليست في أن الحجاب فريضة أو سنة أو أنه مجرد عادة، فقد حسمت هذا الأمر مع نفسي منذ زمن: الحجاب فريضة لمن يؤمن به كذلك، وهو غير فريضة لمن يؤمن به كذلك. لكن ما يعنيني هو أن المعني بالفريضة هو المرأة، لكن الموجه إليه الخطاب دائما هو الرجل، وكأن هناك أمرا إلهيا بحجاب النساء، وأمرا آخر للرجل بأن يجبرها على ذلك، والمدهش أنهم لا يتفقون على المساحة التي يجب على المرأة أن تغطيها، الشعر، الشعر والرقبة والأذن، الوجه، الكفين، بل تجد بعضهم يتمنى لو أن المرأة لبست طاقية الإخفاء حتى يهدأ الرجل المستثار دائما.

إن كل ما سبق يقودنا إلى الوضع البائس الذي نعيشه، فلا نحن حافظنا على شكل القبيلة، ولا وصلنا إلى تكوين دولة، وأصبحنا نرى بشرا لا يقيمون كثير وزن للرشوة والغيبة والنميمة والفساد بأشكاله كافة، واختزلوا مفهوم الشرف في التزام بمفهوم غامض هو الزواج، وشجعت على التدخل في شئون البشر، وأهدرت طاقات أكثر من نصف سكان البلد في لا شيء، ومع ذلك فإن هذا حتى فشلت في تحقيقه فانتشر كل ما يناضلون ضده، بينما لم نصل إلى ما ناضل من أجله المتقدمون.

إنهم يحبون النفاق .. أليس كذلك؟

إذا سألت أي إسلامي: هل تؤمن بحرية العقيدة؟ فإنه، غالبا، سيجيبك بثقة: طبعا. وإذا سألته: وما رأيك في حد الردة؟ فإنه سيجيبك بالثقة نفسها: إنه شرع الله، ولابد من تطبيقه!

إن هذا الموقف السابق ذكره، يلخص موقف الإسلامي من قضية حرية العقيدة، فهو يرى أن الناس إسلام وأديان أخرى. وأن أصحاب الأديان الأخرى هم كذلك فقط لأن حظهم العاثر جعلهم يولدون لأبوين غير مسلمين. وبالتالي فإن المسلم يقر بـ"وجود" أتباع الأديان الأخرى، وبالتالي فهو مع حرية العقيدة. لكنه، في الوقت نفسه، يؤمن بأن مهمته هي الحد من هذا الوجود. وبناء عليه، ومن باب أولى، فإنه يمنع أتباع الإسلام من أن يتركوه إلى الأديان الأخرى، أو إلى اللادين.

إنه، إذن، لا يؤمن بحرية الاختيار. وإنما يعترف بأن هناك أغيارا، يصنفهم باعتبارهم مغيبين يجب تقليص أعدادهم في هذا الكون السرمدي. كما أنهم خطر كبير على إيمانه هو شخصيا الذي يهتز بمجرد إعلان أحدهم أنه لا يؤمن بالإسلام دينًا.

تعال نراجع القوانين المصرية فيما يخص العقيدة، فالقانون لا يمنح الحق في الاعتقاد إلا لديانتين، هما الإسلام والمسيحية، وذلك باعتبار أن المسيحية هي الإسلام القديم الذي تم تحريفه. أما الأديان الأخرى فإن أهلها محرومون من حق تسجيل عقائدهم في خانة الديانة، وعليهم أن يسجلوا أنفسهم كمسلمين أو مسيحيين!

وهكذا فإن البهائي أو الأحمدي أو القادياني أو الملحد الذي لا يؤمن بدين ما مجبرون على أن يخفوا هويتهم، وأن يظهروا كمسلمين أو مسيحيين، أي أنهم مجبرون على ممارسة النفاق ٢٤ ساعة في اليوم، وأن يورثوه لأبنائهم. إن المسلم مستعد لأن يكذب عليه البشر وأن يقولوا له "نحن مسلمون" وليس مستعدا لسماع الحقيقة، أليس هذا موقفا متخلفا؟

ولنتابع معا ما يجري في بلد كمصر، ولنقر مبدئيا أن موقف الدولة المصرية نابع من رأي عام شائع في أوساط المسلمين، بل إن كثيرا من القوانين يتم تفعيلها بناء على أحداث ساخنة تسيل فيها الدماء، كما حدث للبهائيين مثلا.

فالمسلم يسمح بأن يخرج المسيحي من ديانته إلى الإسلام. هذا عادي، بل إن هناك مسلمين ينظمون جماعات وتشكيلات لاحتواء المتحولين إلى الإسلام، وفي هذا المضمار ينفقون الكثير من الأموال، وهذا حقهم بكل تأكيد، لكن المسلم الذي يقرر الخروج من

الإسلام إلى المسيحية أو إلى أي دين آخر، فإن هذا غير مسموح به، وإذا عرف أن هذا الشخص أصبح ملحدًا، فقد عرض نفسه لعقوبات منها القتل، حرفيا لا مجازا، ولعلنا جميعا نتذكر محاولة اغتيال نجيب محفوظ، واغتيال الكاتب فرج فودة عام ١٩٩٢ على خلفية شهادة شهدها محمد الغزالي بأنه مرتد.

ورغم أن القانون المدني لا يشتمل على ما يعرف بحد الردة (**قتل الخارجين من الإسلام**) إلا أنه يحتوي على عقوبات أخرى بأسماء مختلفة أشهرها الاتهام بارتكاب جريمة "ازدراء الأديان" وهي الاتهام الذي ربما يطال كاتب هذه السطور، وهو اتهام أقل ما يقال عنه إنه إرهاب فكري، قائم على تخويف الناس، وسلبهم حقوقهم في التفكير والتعبير؛ لأن مفهوم الازدراء، كالعادة، غير واضح، ويمكنه أن يشمل أي شيء، أي شيء.

مثلا، هذا الكتاب عنوانه: عزيزي المواطن المسلم .. لماذا أنت متخلف؟ ومتخلف، كما تفهم من الكتاب، معناها متأخر علميا وتكنولوجيا وحضاريا، وأعتقد أن هذه حقيقة، على الأقل من وجهة نظري، فمصر والسعودية وسائر بلاد العرب، وحتى باكستان وإندونيسيا وإيران هي بلاد متخلفة اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا، في حين نجد دول أوروبا متقدمة ومتفتحة.

غير أن هذا الكتاب قد يقع تحت طائلة القانون بتهمة ازدراء

الأديان، التي يعاقب صاحبها بالحبس أو الغرامة أو كليهما، على اعتبار أنه يصف أتباع ديانة بالتخلف، وقد يقع أي إنسان تحت طائلة هذا القانون، ولو طبقناه بحذافيره، لتمت عقوبة كل المصريين، ألا يزدري المسلمون والمسيحيون بعضهما البعض أم أننا سننافق وننكر كالعادة؟

وهكذا، فإن المسلم يقبل أن يأتي إليه أتباع الأيان الأخرى، ولا يقبل أن يخرج منه أتباعه، وكأن الإسلام سجن، وهو ما يستوجب ضيق الأفق وعدم التعرف على الأفكار، وخلق نسخ متشابهة تأتمر في النهاية بأمر شيخ، وتقوم على مبدأ السمع والطاعة، ولا تجادل يا أخ علي.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد، لأن الدولة المصرية تسمح للمسيحي أن يعتنق الإسلام، لكنه إذا أراد العودة إلى المسيحية، أو الخروج إلى دين آخر، فإنها تمنعه، وتجعله عرضة لتطبيق حد الردة، أو تطبق عليه قانون ازدراء الأديان!

كارثة أكبر، فالرجل الذي يترك دينه ليدخل إلى الإسلام، قد يكون متزوجا، وبالطبع فإن "الإسلام" لا يمنع الزواج من مسيحية، غير أن زوجته ستصبح زوجته وفقا لقواعد الإسلام، رغم أنها لم تختره، ولا خطر على بالها، وتتضاعف الكارثة في حال إنجاب أطفال، لأن الأطفال سيصبحون مسلمين، رغم أن الأب الذي دخل الإسلام ربما

تركهم وانفصل عنهم، وهكذا تجد أسرة مسيحية أو بهائية أو ملحدة نفسها وقد أصبحت فجأة مسلمة، وإذا خرجوا من الإسلام يصبحون مهددين بالقتل أو السجن!

ويتحدثون عن حرية العقيدة، أي حرية تلك؟ وأي عقيدة؟.

قد يقول قائل: ولكن فتح الباب على مصراعيه يهدد بالفتنة، وانتشار الأفكار الداعية إلى زعزعة العقيدة لدى المسلم، وهو قول يذكرني بجدتي نظيرة عليها رحمة الله تعالى، إذ تزوجت دون الرابعة عشرة، وأنجبت بعد تسعة أشهر. وعندما قال لها الناس: لا تعرضي ابنك للهواء وإلا مرض، فوضعته في صندوق، وأغلقت عليه بمسمار حتى توفي!

وعلينا أن نراجع هذه المقولة في النقاط التالية سريعا:

- أولا، ليس من حقك اتخاذ البشر رهائن من أجل حماية فكرك ودينك. وإلا فأعلنها صريحة أنك تشن الحرب على العالم، وعلى الأديان الأخرى، وان مشروعك في الحقيقة هو قتال الناس حتى يؤمنوا بدينك. إلا إذا كنت تؤمن بمبدأ أن الحرب خدعة، وأن حبس حرية البشر مقصودة.
- ثانيا، أيهما أخطر على الحرية والعقيدة: بشر يعلنون موقفهم بصراحة. ومن ثم، يعطونك فرصة للدفاع عن معتقدك، ومعرفة مكامن القوة ومكامن الضعف فيه، أم طابور خامس

يتظاهر بأنه معك، بينما يمارس التخريب من الداخل؟ لماذا تصر على ضم أتباع ينافقونك، أنت تحب النفاق، أليس كذلك؟

- ثالثا، أي دين ذلك الذي يعاني من هشاشة، حتى إن أتباعه معرضون للاهتزاز في عقيدتهم بمجرد الاطلاع على عقائد الآخرين، مجرد الاطلاع، وإذا كانت الحجة بأن الناس بسطاء وفقراء وجهلاء، فأن ذلك أدعى لمعالجة ذلك، وليس الإبقاء عليه داخل صندوق مغلق بمسامير حتى تصحو يوما فتجده متوفيا تماما.

صدقني عزيزي المسلم، لن تحدث نهضة في بلاد المسلمين، ما لم نتجاوز سؤال الدين، ليس فقط إلغاء خانة الديانة من هوياتنا، ولكن التوقف عن التفكير، من مسلم ومن مسيحي ومن بوذي ومن بهائي، وإعطاء البشر حقهم الكامل في اعتناق ما يشاؤون، وممارسة شعائرهم بكل حرية، والترويج لمذاهبهم، مع تجنيب الدولة ذلك المنزلق بحظر العمل العام وفقا لأية أرضية دينية تكون سببا في التشتت والتخلف الذي نعيشه جميعا.

كم مكيالا تمتلك؟

يتعجب الكثيرون من مواقف الإسلاميين، فبينما يرفضون الديمقراطية ويعتبرونها كفرا، يتكالبون لخوض أية انتخابات، برلمانية رئاسية نقابية طلابية أو حتى في فصول المدارس. ويتحالفون حتى مع الشيطان في سبيل حصد الأصوات، إنهم حتى لا يدخلونها بالنزاهة المناسبة لشعاراتهم. ناهيك طبعا عن عشرات المواقف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يتبنون فيها مواقف تتناقض مع خطابهم، بل إنها تتناقض أحيانا مع أي خطاب أخلاقي من أي نوع.

غير أن المتابع لمنهج تفكير الإسلاميين في كافة القضايا سيجد التناقض والكيل بمكيالين هما سمة أساسية في تكوينه، وربما يرجع ذلك إلى إيمانه بأنه يخوض نوعا من الحرب ضد البشرية على نحو مستمر. والحرب، كما نعلم، خدعة يباح فيها كل شيء مادمنا سننتصر في النهاية على "العدو"، من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض.

أعتقد أننا جميعا نرى موقف الإسلامي حين يتحول أي إنسان عن دينه، أو لا دينه، فيدخل الإسلام، إنهم يعتبرون ذلك دليلا على صدق الإسلام، وعلامة ربانية على أنه الدين الحق. بل إنهم ينفقون في سبيل ذلك الأموال والأوقات والجهود والبعثات.

حسن، هذا حقهم بالطبع، كلنا نفرح عندما نجد من يشبهنا، ومن يؤمن بما نؤمن به، لكننا لا نعتبر ذلك دليلا على شيء، إنه شيء مبهج، وكفى. وإلا اعتبرنا أن من يترك الإسلام دليلا على عدم صدقه! ولنتأمل موقف الإسلامي عندما يخرج أحدهم من الإسلام، إنه دليل على مؤامرة ضد الإسلام، وهذا المتحول مغيب، ومضلل، اشتروه بالمال ليطفئوا نور الله بأفواههم. إنهم يعتبرون كل من يدخل الإسلام قانعا، وكل من يخرج منه طامعا. هل هناك عنوان آخر للكيل بمكيالين أكثر من هذا؟

يتهم المسلم أتبع الديانات الأخرى بالغباء، والإيمان بالخرافات، وعدم إعمال العقل، مستندا في ذلك إلى أمور يؤمنون بها، أو يقدسونها، ويعتبر أن إيمانه بالإسلام جاء نتيجة التفكير السليم. وأذكر أنني كنت أشاهد فيلم "قهصرزمن" في السينما قبل سنوات. وكنت بصحبة أحد الأصدقاء، الذي كان له صديق سعودي حضر الفيلم معنا. وعندما انتهينا من رؤيته، قال المواطن السعودي: كيف يقولون إن أوروبا متحضرة، إنهم متخلفون يؤمنون بالأشباح، وهذا

الكلام الفارغ. لكننا، والحمد لله، لا نؤمن إلا بالجن!

إنني بالطبع لا أرى تخلفا في الإيمان بوجود جن أو أشباح او كائنات فضائية أو أرواح شريرة، لكن التخلف في أنك ترى إيمانك بشيء منها إعمال للعقل بينما ترى الإيمان بشيء آخر نظير له تعطيل لنفس العقل.

إن المسلم مستعد للسخرية من البوذيين الذين يقدسون تمثالا، والوثنيين الذي يصلون أمام حجر، لكنه لا يشعر بأي حرج، وهو يسعى لتقبيل حجر أسود يراه مقدسا.

ويغضب المسلم من الهواء الطائر إذا مر على مقدساته بشيء فيه شبهة من قلة الاحترام، كم غضبوا للرسوم المسيئة للرسول، وأهدروا دم سلمان رشدي، وحاولوا اغتيال نجيب محفوظ، واغتالوا فعلا فرج فودة، والله يعلم على من الدور. لكنهم في الوقت نفسه، لا يجدون أي غضاضة في أن يخرج أحد مشايخهم في التلفزيون الرسمي ليسب ويلعن في المسيحيين لأنهم "جهلاء" يؤمنون بصلب المسيح.

يثور المسلم لأن بلدا مثل سويسرا تستفتي الشعب في سن قانون يمنع بناء مآذن للمساجد)وليس منع بناء المساجد فهم يؤمنون بحرية العقيدة وهو أمر منته بالنسبة لهم)، ويعتبرون هذا عدوانا على الدين، وشنا للحرب ضده. لكنهم، وفي الوقت نفسه، يمنعون

المسيحيين في مصر من إصلاح صنبور في كنيسة إلا بإذن رئاسي، ناهيك عن أنهم يمنعون أصحاب الأديان الأخرى والملحدين من ممارسة أية شعائر خاصة بهم، رغم أن الإسلام في سويسرا وافد، قدم مع بشر يفرون عادة من الظلم والجهل والفقر والاستبداد في بلادهم الأصلية، في حين أن المسيحيين والبهائيين والملحدين هم مواطنون مصريون كثير منهم كان موجودا في مصر قبل وفود الإسلام إليها بقرون.

وعلى ذكر الوجود الإسلامي في أوروبا، فإن الكاتب رياض عبد يورد أرقاما وإحصائيات مذهلة عن الوجود الإسلامي في بلاد الكفار، وكيف أنهم يحصلون على منح للدراسة وبناء المساجد التي تتحول إلى معالم في كل مدينة، ويأكلون ويشربون ويسكنون وينامون، ويحصلون على الوظائف، ويمارسون شعائرهم بكل حرية، فيعطلون العمل وقت الصلاة، ويرهقون ميزانية الدول التي يفدون إليها بكثرة إنجابهم.

الغريب أن هؤلاء أنفسهم هم الذين يقيمون الدنيا ولا يقعدونها إذا ما صدر أي فعل، ولو فردي، ينتقد الإسلام ويسيء إليه ويتحدثون عن الحرب ضده!

لعلنا جميعا نذكر قضية الرسوم المسيئة للرسول، وهو بكل تأكيد فعل أخرق يجرح مشاعر المسلمين، هذا إذا حدث هنا، لكن ثقافة

الغرب الذي يؤويك لا تعتبر انتقاد الأديان، كل الأديان، جريمة. كم مرة أهينت المقدسات المسيحية، بحسب مفهومنا للإهانة، في إعلانات وأفلام ومقالات ورسوم، دعنا نقل بالبلدي إن هذا "سلو بلدهم"، وأنت تحل ضيفا عليهم، تتلو قرآنا يسفههم، ولا يعترضون، فلماذا تتعامل باعتبارك الوحيد على هذا الكوكب الذي يملك إحساسا ومشاعر يجب أن يحترمها الجميع.

وإذا كنا قد تحدثنا عن وفود الإسلام إلى مصر، فإن المسلمين يعتبرون دخول الإسلام مصر وسائر بلاد العالم، فتحا، ونصرا من الله. إنهم يتباكون على الوجود الإسلامي في أسبانيا، ويتهمون الإسبانيين بالوحشية نتيجة ممارساتهم (الوحشية بالفعل) ضد من تبقى من المسلمين في أسبانيا، بعد ثمانية قرون من "الاحتلال". لكنهم، في الوقت نفسه، يعتبرون الحملات الصليبية حروبا همجية دينية مؤامرة كونية ضد الإسلام. ويعتبرون المغول والتتار همجا لأنهم كانوا يفتحون كل البلاد التي يقابلونها، ويعرضون عليهم التسليم مقابل السلام.

إننا، بالطبع، لا نرى في الحروب الصليبية جهادا مشروعا، ولا نؤمن بتحضر المغول، إننا فقط نود أن نشير إلى أن العالم الآن يعترف بأن كل هذا كان طبيعة مرحلة، وأن هذه كانت طبيعة العصور الوسطى، كل الدول القوية كانت تسعى للتوسع

والاستيطان. وأن الوسيلة الوحيدة لحماية حدودك كانت في احتلالك لجارك. وبالتالي فإن المواطن في أية دولة أوروبية لا يشعر بالمجد والفخر لأن أسلافه قتلوا وأحرقوا ودمروا واحتلوا.

لا يعني هذا بالطبع أننا نطالب الإسلام بالعودة للجزيرة العربية، لأن هذه سذاجة شديدة، كما أن العرب لم يأتوا فقط بالحروب، لكننا نطالب بمعيار نحكم به على التاريخ، لنستفيد من دروسه، ونتقي ما يمكن اتقاؤه من ويلات.

إن هذه الظواهر التي نرصدها هنا، وكثير غيرها، يكشف عن المنهج الإسلامي في التفكير، فهو لا يحاول الارتقاء بالبشرية نحو أخلاقيات أرفع، بل يعتبر نفسه هو الأخلاق الرفيعة ذاتها، وبالتالي فإن ما يفعله، وما فعله عبر التاريخ، هو الإنسانية ذاتها، حيث لا مجال لارتكابه الأخطاء، ناهيك عن الاعتذار عنها، وهو منهج يقف مباشرة في مواجهة التطور، ويعوق التقدم، لأن مراجعة الذات هي الأساس في تجاوز المراحل. وعبر العقود الاخيرة أصدرت عدة هيئات عالمية، دينية وغير دينية، اعتذارها عن مواقف اتخذتها، سواء باسم الرب أو بأي اسم آخر، وردت تلك المواقف إلى طبيعة الوقت الذي جرت فيه، وما يجعل العالم يتحرك كل يوم خطوة، بينما نتحرك نحن كل يوم عشر خطوات .. للخلف.

ضد العقل .. ضد العلم .. ضد المنطق

يسير المسلمون في طريقة تعاملهم مع مقدساتهم من نصوص وأشخاص على عكس حركة التاريخ تماما. فالأديان تبدأ في صورة بدائية، تؤمن بحرفية النصوص، وبأن الأشخاص المؤثرين في الديانة هم أعلى من البشر في طبيعتهم، فهم أقرب إلى الآلهة، وبأن العالم يتم تسييره بشكل غيبي ميتافيزيقي، فكل شيء يسير وفقا لغضب الإله/ الآلهة، أو رضاهـ/م، والإنسان مجرد ورقة أو ريشة في مهب الريح، لا يملك لنفسه دفعا ولا ضرا، وليس عليه سوى إرضاء ما يعبده.

ثم تتطور طريقة التفكير شيئا فشيئا، وكل يوم يبدأ الإنسان في فهم أفضل لمقدساته، ويتغلب على شعوره بالعجز القدري، وهو ما يساعده على صياغة حياته على نحو أفضل، والتحكم في الموجودات بصورة أكبر من اليوم السابق، وذلك عن طريق زيادة في جرعة المعرفة والعلم، حتى في ظل إيمانه بأن ما أوتيه من العلم قليل، وأن أمامه الكثير لإنجازه.

أما المسلم، فإنه بدأ مسيرته في الوجود الإنساني برؤية أقرب إلى العقلانية والعلم ونبذ الغيبيات المطلقة، ثم بدأ بعد انقضاء فترة

التكوين في التراجع تجاه الإغراق في الميتافيزيقا والسلبية الشاملة تجاه المطلقات بشكل عام.

وبحسب ما وصلنا من نصوص، فإن الرؤية العامة تقول بأن نبي الإسلام لم يدع لنفسه أية طبيعة خاصة، حتى إن القرآن نص على أنه مجرد بشر "مثلنا"، وأن المسلمين أدرى منه بشؤون دنياهم، وأن مهمته بالدرجة الأولى أخلاقية، فقد جاء ليتمم مكارم الأخلاق، وهاديا ومبشرا ونذيرا ورحمة للعالمين. كما أنه كان دائم الاعتماد على أهل الكفاءة، متقبلا لكل الجديد والمبدع)الخندق نموذجا)، بالإضافة إلى حضه الدائم على إعمال العقل والتفكير والتدبر. ثم جاءت الأجيال التالية لتضيف إليه هو شخصيا، وإلى القرآن، قداسة زايدت على ما جاء هو به.

وبصراحة، فإن عقدة العقد هي إيمان المسلمين الجازم بأنهم مطالبون بحمل كل ما جاء في القرآن على المحمل الحرفي، ولا يقبلون فكرة أو احتمال وجود مجازات أو تشبيهات لتقريب الصورة إلى أذهان الناس في القرن السابع الميلادي، وأن الأمور قد لا تكون هكذا على النحو الحقيقي والموضوعي.

لقد كان مفتاح التطور في الغرب هو مراجعة موقفهم من الكتاب المقدس الذي ظلوا قرونا يعاملونه بحرفية، فكان هذا التعامل معوقا لفهم الحياة والطبيعة، وكما نعلم فإن الفهم هو أقرب طريق نحو السيطرة.

لنأخذ مثالا بقصص الأنبياء، فقد وردت في القرآن قصة طوفان نوح، وكيف أن الماء غمر العالم حتى أعلى قمة جبل، ولم ينج إلا المؤمنون الذين ركبوا سفينة نوح التي صنعها بنفسه. وهي قصة قديمة، ذكرتها جميع الأديان تقريبا.

كيف يمكن التعامل مع قصة كهذه؟

يمكننا بالطبع أن نتعامل معها باعتبارها رمزا تراثيا إنسانيا، يحمل فكرة عظيمة عن أن النجاة لن تكون إلا للمؤمنين، وأنه حتى درجة القرابة لن تشفع لك، إلى آخر دروس القصة.

غير أن التعامل معها باعتبارها حادثا تاريخيا هو إهدار لكل قيم العلم والمعرفة. فكيف تحمل سفينة نوح مثلا زوجين من كل جنس، من أين أتى بالحيوانات والنباتات التي تعيش في القارات الست؟ كيف تسير سفينة على وجه الماء، أيا كان حجمها، بكل هذه الترليونيات من الأطنان؟ كيف كانت كل هذه الكائنات تأكل؟ بل وتتناسل؟ كيف وصلت السفينة إلى أعلى قمة جبل، ولم تتجمد تلك الكائنات في هذا الصقيع، بل كيف عاشت كائنات المناطق الحارة مع كائنات المناطق الباردة في الجو نفسه؟ وعندما استقرت السفينة على الأرض مرة أخرى، كيف تناسلت الكائنات الناتجة من ذكر واحد وأنثى واحدة دون أن يحدث تشوه في الأجيال التالية؟

إذا كانت الإجابة هي: "بقدرة الله" فهذا أيضا يعني أنها قصة خاصة، معجزة، لا يمكن التفكير فيها على نحو علمي، ولا القياس

عليها. آمن بها، وصل بآياتها، وسبح ربك، وفقط.

وقد يثور سؤال: وما المشكلة في الإيمان بالقصة حرفيا؟

للإجابة، علينا أن نتذكر حدوث تسونامي مثلا عام ٢٠٠٤، لقد تسابق العالم الإسلامي في البحث عن أسباب غيبية تخص غضب الله من أهل البلد، وانتشرت بين المسلمين الفيديوهات التي تتحدث عن الزنا او انتشار التشيع في تلك البلاد وما إلى ذلك، لأن عقلنا مركب على أن الله يخرق قوانين الطبيعة متى شاء، وبالتالي فلا طائل من البحث عن أسباب علمية لما حدث.

عير أن العالم تركنا في خزعبلاتنا، وتسابقت الأمم ذات العقول المتحررة في كشف الأسباب التي أدت لذلك، وهو ما مكن اليابانيين من تجاوز تسونامي ٢٠١٠ في شهور قليلة، رغم أنه كان أشد هولا من تخيلنا ليوم القيامة، يأتي هذا في الوقت الذي تغرق فيه القاهرة إذا سقطت أمطار ليومين متتاليين.

إن المسلم حاليا يؤمن بأن كل شيء له أصل غيبي، فإذا أصاب فلان خير، فذلك لأن الله يحبه، وإذا أصابه مكروه، فذلك لأن الله غاضب عليه. وإذا أصابه مكروه، لكنني أحبه، فهذا لأن الله يختبره أو يكفر عنه ذنوبه.

إذا كسب نقودا، فهذا رزق من الله. وإذا خسر نقودا، فهي فداء لشيء أثمن، إذا رأى أي شيء غريب: انحناء في شجرة، نتوء في صخرة، فهي معجزة. وإذا صادف شخصا مصابا بمرض ما غير

معروف، فهو ممسوس بالجن. وهلم جرا.

وبغض النظر عن أن من يفكر بتلك الطريقة يضع نفسه مكان الله، ويفسر ما يحدث وكأنه يعرف أسرار الكون، فإنه يحرم نفسه من تحليل الظواهر، ولن أقول لك تأمل حالتنا العلمية، بل تأمل كرة القدم.

إذا انتهت مباراة مثلا بين فريقي الاتحاد والمحلة بفوز فريق المحلة، فإن اللاعبين والمدير الفني والطاقم الإداري يخرجون علينا بتصريحات واحدة تقريبا: "ربنا أراد إننا نفوز لانه مش عايز يزعل الجمهور ده ويعكنن عليه!" دون أن يشرح لنا ولماذا يريد الله العكننة على جمهور الاتحاد؟

في المقابل يخرج علينا جمهور الاتحاد بنظرية بسيطة مفادها أنهم "فعلوا ما عليهم" .. "بس ربنا مش رايد"!

إن هذه الطريقة في التفكير تهدر الفرصة في البحث والتحليل ومعرفة أسباب تفوق فريق على فريق، وتطوير مناهج البحث، ولنتأمل انعكاس هذا على حال كرة القدم، فرغم فوزنا بعدة بطولات إلا أننا فشلنا في أن تكون كرة القدم مصدرا للدخل القومي، فلا لاعبين يحترفون في الخارج، إلا قليلا جدا، ولا سياحة تنشطت، ولا حتى نجحنا في الوصول إلى كأس العالم حتى يرانا هذا العالم.

لم يتوقف أحد ليشرح أو يبحث أو يفكر؟ لماذا نفوز عندما نفوز؟

ولماذا نخسر عندما نخسر؟ والنتيجة هي التأخر المستمر في هذا المضمار) لاحظ أننا نتحدث عن مجال حققنا فيه بعض الانتصارات).

لقد ظل العرب يؤمنون لفترة طويلة من الزمن أنه من المستحيل معرفة نوع الجنين إذا كان ذكرا أم أنثى، استنادا إلى أن الله "يعلم ما في الأرحام"، وعندما بدأنا نسمع أن الغرب توصل إلى جهاز يفعل ذلك، طالبنا بتحريمه، وهو طلب غريب: هل تؤمن بأنه "مستحيل"، باعتباره من أسرار الكون الكبرى؟ أم تؤمن بأنه حرام؟ بالطبع لم ينتظرنا العالم، تركنا نتخبط في تفسيراتنا الغيبية، وطور أجهزته حتى أصبحت واقعا اضطرنا في النهاية لقبوله صاغرين، كان العالم خلالها يبحث كيفية تخليق كائن حي في المعمل.

وإجمالا، فإنه لا يمكن أن نتقدم خطوة دون التخلي عن حرفية النص، حيث أصبح التعامل معه باعتباره نصا يضع أطرا أخلاقية أمرا لا مفر منه، هذا إذا كنا نريد أن يكون لنا شأن في هذا الكوكب الذي يسير بسرعة الصاروخ نحو العلم، وإن كان قليلا.

كله موجود

كل شيء موجود في القرآن والسنة. هذه حقيقة، فكل ما يمكنك اتخاذه من مواقف، مهما كانت، ستجد له في القرآن سندا، أو على الأقل في السنة.

فإذا كنت، مثلا، من الذين يؤمنون بالسلام مع إسرائيل فيمكنك الاستشهاد بالآية: "**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم**" (استخدمها السادات وقت إبرام كامب ديفيد). أما إذا كنت تؤمن بالحرب ضد إسرائيل، فيمكنك الاستعانة بـ:"لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا" (استخدمها الطلاب في المظاهرات الرافضة لكامب ديفيد).

إذا كنت اشتراكيا تهاجم رأس المال، عليك بـ: "ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده كلا لينبذن في الحطمة وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة إنها عليهم مؤصدة في عمد ممددة"، ويمكنك أن تتبعها بحديث: "الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار".

في حال اتباعك المبدأ الرأسمالي، وحرية التجارة، اقرأ على الناس: **"وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات"**، وزد عليها بحديث: **عَمَلُ الرجل بيده، وكل بيع مبرور"**.

إذا آمنت بحرية العقيدة، فأمامك عشرات النصوص: "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي"، و"أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" و"فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر" و"لكم دينكم ولي دين" وغيرها الكثير.

وإذا رأيت وجوب حمل الناس على الإيمان بالله، ولو قسرا، فلديك عشرات أخرى: "إن الدين عند الله الإسلام" **و"قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله"** (استخدمتها الجماعات الإسلامية خلال فترة التسعينات بأكملها)، وحديث: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله".

إذا كان لك جار مسيحي، ويعز عليك، وتود مخالطته، فافعل من باب: و"لتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذي قالوا إنا نصارى". أما إذا انتقلت لسكن آخر، وكان لك فيه جار مسيحي خبيث تستثقل دمه، فقاطعه من قبيل: **"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين"**.

المستشار سعيد العشماوي قضى عمره في إثبات أن غطاء الرأس

ليس فرضا استنادا للقرآن والسنة، والإسلاميون المعتدلون يؤمنون بأن غطاء الرأس المعروف باسم الحجاب هو فقط الفرض، أما الوجه والكفان فلا بأس من إظهارهما، بالكتاب والسنة. السلفيون يؤمنون بالنقاب، وبأن تعرية وجه المرأة أو كفها كفر، وذلك تطبيقا للكتاب والسنة.

ادع للثورة بحديث: "**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**"، وادع لعدم الثورة بآية: "**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**".

تزوج على امرأتك بـ: "**مثنى وثلاث ورباع**" والتزمها بـ: "**فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة**" مدعمة بـ: "**ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم**"، ويا حبذا لو ذكرت محدثك بأن الرسول رفض أن يتزوج علي زوجة أخرى في حياة فاطمة ابنته.

شجع الابتكار، وادعم التطور، والبحث عن الجديد بحديث: "**من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة**". وحذرهم من الابتكار والتطور والجديد بحديث: "**إياكم ومحدثات الأمور، فإن شر الأمور محدثاتها، وإن كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة**".

حرم الغناء بحديث: "**سيأتي من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف**"، وأبحه بحديث: "**إن الله جميل يحب**

الجمال"، وطالب بعدم تدريس الشعر في المدارس باعتبار أن "**الشعراء يتبعهم الغاوون**" وطالب بزيادة جرعته على أساس "**إن من الشعر لحكمة.**"

هذا بخلاف قصص الخلق وقصص الأنبياء، فيمكنك أن تقول إن الله قد خلق الأرض أولا ثم أتبعها بالسماء، وأنت تتلو: "**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم**". أو أن تقول إن الله خلق السماء أولا ثم خلق الأرض بعدها قارئا: "**أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم**".

يمكنك أن تقول لأولادك إن فرعون موسى قد غرق، وتعلمهم آية: **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا.**"

وربما تريد أن تقول لهم إنه لم يغرق، وأن الله نجاه ليكون عبرة، فتلقي عليهم آية: "**وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين آلآنَ وقد عصيت قبل**

وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون".

قل لهم إن اليوم عند الله بألف سنة من أيامنا: "**يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون**"، وإذا أردت أن تزيد، زد، قل لهم إنه بخمسين ألف سنة من أيامنا: "**تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة**".

وكما ترى فإن كل شيء قابل للوجود في القرآن والسنة، رغم أن الإصرار على وضوح النصوص وقطعيتها، والغريب أن حتى نقطة الوضوح لها أكثر من نص، يمكن أي رأي أن يختارها للدلالة على صحته، فيمكنك أن تستخدم آية: "**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ" إذا كنت تؤمن بقطعيته،** ويمكنك استخدام آية: "**وما يعلم تأويله إلا الله**" إذا كنت تؤمن بأن الله وحده يعلم حقيقة معاني القرآن.

أعرف أن هناك ردا لكل موضوع مطروح هنا، وأن هناك من يخصص من وقته وجهده وماله الكثير لفض الاشتباك بين كل هذه المتناقضات، على الأقل ظاهريا، غير أننا نشدد على أن هذا سيكون على ذمة من يبحث وينقب ويفتش، ولا يمكنه أن يقول: إن الله يقول. بل يجب أن يقول: تأسيسا على هذا النص، ومن خلال

محاولتي للفهم فإن كذا وكذا من وجهة نظري.

إننا لا نريد أن نقول بأن القرآن يناقض بعضه بعضا، وبأن هذا دليل على عدم صحته، هذا غير وارد في حديثنا، نحن فقط نقول إن هناك عشرات المداخل لفهم الحياة مع التمسك بالقرآن، يمكنك مثلا أن تقول، إن الله لا يريد للحياة أن تجمد، فأعطانا إشارات عامة علينا أن نجتهد لفهمها، وأنه لا يريد لأحد أن يفرض وجهة نظر واحدة على الآخرين مستندا إلى كلام الله.

يمكنك أيضا أن تقول إن الله يضع أساسا أخلاقيا لأي نظام ترتضيه لحياتك، بمعنى أن هذه الفلسفة الخاصة بكل طريق، بينما الطريق نفسه من اختيارك أنت.

يمكنك أن تفعل أي شيء إلا أن تقول إن هذا هو كلام الله، ويجب علي فرضه نصا على العالمين، وعندما تكتشف تناقضا تلجأ إلى أي كلام لسد الثغرات، فتقضي عمرك كله في سدها، أليس كذلك؟

باللغة العربية الفصحى

يصر الشيوخ على أن اللغة التي نتحدث بها في حياتنا اليومية هي اللغة العربية، وأنها مجرد لهجة منها، لا ترقى لكونها لغة منفصلة. بل إنهم يحذرون من الذين يروجون لفكرة أن المصرية لغة، والتونسية لغة، واللبنانية لغة، و.... باعتبارهم يسعون لتخريب اللغة العربية التي هي لغة القرآن، ولغة أهل الجنة.

وقد يبدو الأمر في ظاهره خلافا بين متخصصين في علوم اللغة، وأنه خلاف شكلي حول مصطلحات لا علاقة للعامة بها، فما علاقتنا نحن إن كانت لهجة أو لغة، وما الذي سيؤدي إليه اختلاف المصطلح، فالناتج العملي هو أن لدينا لغة فصحى رسمية، نستخدمها في الكتابة، وفي الإذاعة والتلفزيون الرسميين، ولدينا لغة أو لهجة، لا فرق، نستخدمها في الحديث اليومي الشفوي، ولا نكتبها إذ إنها أدنى من الفصحى الراقية، ونحن نشعر بالارتياح لهذا الوضع. إذًا فليحل اللغويون مشكلاتهم في حجرات الدروس وأروقة المؤتمرات والندوات وما إلى ذلك.

غير أن هذه الرؤية ليست دقيقة، إنها نوع من تكبير الدماغ وإراحة الأعصاب وإرضاء الضمير، فالوضع الذي نعيشه كارثي بكل

ما تحمله الكلمة من معان، لأنه أقرب طريق للجهل، وقطع الطريق عن تراثنا حتى إنه يبقى غائما وغامضا وليس متاحا للجميع.

إننا نرى أن الخطوة الأولى لحل قضية الازدواجية الغوية هو معرفة أين نقف بدقة، لنعرف ماذا يجب أن نفعله حيالها، ومحاولة الفهم هذه ستجدها منشورة في هذا الكتاب من خلال مقال مطول حول اللغة العربية واللغات التي نتكلم بها حاليا، غير أننا هنا سنحاول أن نتبين لماذا وصفنا الوضع الحالي بالكارثي، ومساندة الجهل والتخلف:

يظن المواطن العربي، المصري تحديدا، أنه قادر على القراءة بـ"اللغة العربية الفصحى"، باعتبارها لغته الأم، وهو ما يتضح أنه غير صحيح بمجرد الإمساك بأي كتاب صدر قبل مئة سنة، بل ربما قبل خمسين، فاللغة تتطور، وبالتطور تصبح لغة أخرى، تماما كما أن الأب والأم ينجبان ولدا وبنتا، قد يكونان شبيهين بالوالدين لكنهما بكل تأكيد ليسا هما الأب والابن، وكلما انتقلنا من جيل إلى جيل زادت هوة الاختلاف عن "الجد الأكبر" بعد ان تكونت عناصر وأعراق كثيرة قد اختلطت وأنتجت منتجا جديدا.

إن أي مواطن مصري، مهما بلغ مستواه، لا يستطيع قراءة النصوص القديمة من دون الاستعانة بقواميس وشروحات وشروحات على الشروحات، وربما لو أنه قرأ بالإنجليزية لكان ذلك أسهل له، فهو يعترف بأن الإنجليزية لغة أجنبية عليه تعلمها

وإجادتها قبل القراءة بها.

إن اللغة التي أكتب بها مقالي الآن، ليست هي اللغة العربية القديمة، على الأدق ليست واحدة من اللغات العربية القديمة. وعليه، فقد يمكنك قراءة المقال بسهولة، لكنك لن تفهم مثلا قول الشاعر:

عَرَفْتُ الدّارَ قَدْ أَقْوَتْ سِنِينا
لِزَيْنَبَ إذْ تَحِلّ بِهَا قَطِينَا
وَأَذْرَتْها جَوافِلُ مُعْصِفَاتٌ
كَمَا تُذْرِي المُلَمْلِمَةُ الطّحِينَا
وَسَافَرَتِ الرّيَاحُ بِهِنّ عُصْراً
بِأذيالٍ يَرُحْنَ وَيَغْتَدِينَا
فَأَبْقَيْنَ الطّلُولَ مُخَبَّيَاتٍ
ثَلاثاً كالحَمَائِمِ قَدْ بَلِينا

وهي أول أبيات قابلتني عندما كتبت على جوجل: "شعر جاهلي".

ولا يمكنك القول بأن السبب هو أن الألفاظ قديمة، فهناك أشطر نعرف كل كلمة منها، مثل: وسافرت الرياح بهن عصرا، لكنك مازلت لا تعرف معناها.

وليس الشعر الجاهلي فقط هو العصي على الفهم والتلقي، فكل النصوص القديمة والكتب، وأمهات الكتب كالسيرة و"البداية

والنهاية" والعقد الفريد والأغاني و"الإمتاع والمؤانسة" و"الهوامل والشوامل"، كلها مجرد طلاسم لا يعرف معناها إلا من كان متخصصا في اللغة العربية القديمة التي هي مختلفة تماما الاختلاف عن اللغتين اللتين تستخدمهما في القراءة والكتابة أو في الحديث إلى الناس.

وإذا مددنا الخط على استقامته، فسنجد أن علاقتنا بالقرآن لا تختلف عن هذا الوضع في جوهره، لكنها تختلف من زاوية واحدة فقط، هي أننا "نحفظ" آيات القرآن، بلغته الأصلية، حتى إنه يبدو مألوفا وسهلا وبسيطا، غير أننا لا نقرأ القرآن حقيقة.

وقد أشرنا في مقال سابق إلى أن المسلمين بصفة عامة لا يعرفون أكثر من واحد بالمئة من القرآن، نظرا لأنهم يقرؤونه بلغة ليست لغتهم، وهو أمر شبيه بوضع الأوروبيين فيما قبل عصر النهضة عندما كانوا يقرؤون الكتاب المقدس باللاتينية، ويرددونه في الصلوات، وهم لا يعرفون معانيه. قبل أن يقروا بوجود ترجمات له إلى الإيطالية والأسبانية والفرنسية والبرتغالية وهي اللغات التي خرجت من عباءة اللاتيني كما خرجت المصرية واللبنانية والتونسية.

وبهذا فإننا نخرج أجيالا "حافظة مش فاهمة"، وهو لب التخلف وعينه، حينما نكون حاملين لنصوص لا نعرف فحواها، ولا نستطيع حتى تمييز كلماتها.

وقد يثور سؤال: ولماذا لا نهتم بدراسة "اللغة العربية"؟ إن الوضع الكارثي الذي تتحدث عنه ناتج عن التقصير والإهمال في تعليم أبنائنا، وليس ناتجا من أن هذه ليست لغتنا؟

وللإجابة على هذا السؤال لدينا عدة نقاط:

١- طالما أننا نحتاج تعلمها والتفقه فيها وإنفاق الوقت والجهد والمال في تحصيلها، فهي ليست لغتنا، لغتنا هي التي نكتسبها على نحو "طبيعي"، وليست تلك التي نتلقاها بالدرس، يعني مثلا، إذا اهتممنا بتعليم اللغة الإنجليزية حتى أصبح أطفالنا يجيدونها كأبنائها، فهل تصبح الإنجليزية هي لغتنا؟

٢- بالطبع، لست ضد الاهتمام بدراسة اللغة العربية القديمة، أو اللغات، فالنحو هو أحب علم لدي، ولي فيه مؤلفات، لكن لنكن واقعيين، هل نريد بشرا يفهمون النصوص المقدسة؟ أم أننا نبحث عن المستحيل، دراسة اللغة العربية القديمة تحتاج موهبة أولا، ثم وقتا كبيرا ومجهودات مضاعفة، وأموالا طائلة، وهو غير متاح للجميع، بل إنه ليس متاحا لنسبة كبيرة من السكان، وحتى لو كان متاحا، فهل سنترك كل العلوم التي علينا تحصيلها، ونركز جميعا في دراسة اللغة العربية القديمة؟ إن هذا أمر للمتخصصين، فليمارسوه لكن ليس من حقهم احتكار الوصول للتراث، وتخيل لو أن لدينا "ترجمات" لأمهات الكتب من اللغة القديمة إلى العامية، ألن يساعد هذا

في فهم التراث؟

٣- من قال إننا لا نهتم بدراسة اللغة العربية؟ انظر: كم معهدا وكلية وجامعة مخصصة لدراسة اللغة العربية؟ ومع كل هذه الجهود، فإن اللغة بقيت عصية على من لا يستطيع أو لا يحب تعلمها، ومن خلال خبرتي كمدرس للغة العربية أقول إن تعلمها ليس سهلا أبدا، والأفضل هو أن يصل التراث للناس بلغتهم، إنني لا أعرف ما الذي يبهج في مشهد طفل أو رجل باكستاني يردد القرآن باللغة العربية وهو لا يفقه مما يردده؟

إن الشيوخ يريدون تكريس الوضع الراهن لأنه يبقيهم في موقع الكهنوت، ويمنحهم قداسة كبيرة نتيجة لأنهم يمتلكون مفاتيح النصوص الكلاسيكية في الدين، وبالتالي فإن قداستهم من قداسة الدين نفسه، وما يقولونه هو الحق وسواه باطل يسعى إلى هدم الإسلام!

ولعل المشاهد التي شاهدناها بعد الثورة من تحريك للجموع يقوم به الشيخ الفلاني والشيخ العلاني، فمن أبو إسماعيل إلى حسان إلى خالد عبد الله إلى يعقوب إلى الحويني، حتى كانوا سببا في الفتنة ولم يكونوا منارة للناس، وإن كان هذا له سبب، فإنه يكمن في قدرة هؤلاء على حمل النص للعاجزين عن حمله بأنفسهم حتى كاد يعبد البشر بعضهم بعضا.

مقدمة: عن اللغة العربية وأزمة "النظام الرابع"

"لتحيا اللغة العربية يسقط سيبويه". كان هذا عنوان "دراسة" قدمها الكاتب شريف الشوباشي قبل سنوات، يطالب فيها بإسقاط بعض القواعد من دروس النحو العربي، وقد أحدث الكتاب معركة كبرى بينه وبين شيوخ اللغة العربية والإسلام.

وأرى أن اندهاش القارئ - ولنقل صدمته - من اتخاذ جملة كهذه عنوانا لكتاب لا يقل عن الدهشة - أو الصدمة - من الدعوى التي تتبناها الجملة؛ فالكاتب قد اختار لنفسه عنوانا دعائيا يذكرك إلى حد بعيد بالشعارات الانتخابية. مما يجعلك مضطرا لاتخاذ موقف دعائي مقابل بغض النظر عن تحمسك للدعوى أو تحمسك لشن الحرب عليها. وهذا ما نلمسه بوضوح من تعقيبات جاءت كلها على المستوى نفسه من الدعائية والفجاجة، بداية من "يحيا سيبويه .. يسقط شريف الشوباشي" إلى "لا للعبث بتراث الأمة" حتى وصل الأمر إلى "العمالة" و"الاستعمار وأعوانه"!!

وظني أن هذه الدعائية تفقدنا فرصة ذهبية لمناقشة موضوع

اللغة العربية وموقعها ووضعيتها ومستقبلها من الداخل أي من داخل اللغة نفسها بشكل مستقل عن الموقف الأيديولوجي المسبق والذي يستوي فيه الموقف "التجديدي" والموقف "المحافظ"، فهذه الدعائية لا تفتقر إلى الموضوعية فحسب، بل تفتقر كذلك إلى القدرة على التمييز بين مفاهيم بالغة الاختلاف فيما بينها، وهكذا صار التطوير مرادفا للتسهيل عند البعض ومرادفا للعبث عند البعض الآخر، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى صارت اللغة العربية هي قواعد اللغة العربية هي واضعو هذه القواعد وصار لزاما عليك اتخاذ موقف موحد حيالها جميعا على ألا يخرج هذا الموقف عن القبول أو الرفض لهذه الكتلة الواحدة!! ومن ثم انصرف الجميع إلى مناقشة ما ينبغي فعله عن مناقشة ما هو قائم وكأن هناك وضعا قائما ومستقرا ومفهوما إلى درجة البداهة ولا ينتظر منا غير اتخاذ القرارات!! وهذه فرضية تستحق الاختبار، وهذا ما سنحاول فعله في السطور القادمة.

اللغة ودراسة اللغة

يصر الجميع في معرض الدفاع عما يعتقدون على أن هناك كيانا مستقلا بنفسه اسمه اللغة العربية، فيرى فريق أن هذا الكيان صامد عبر العصور بفضل حفاظ أبنائه عليه أو لأسباب إلهية أو لغيرها من الأسباب، بينما يرى الفريق الآخر أنها تحجرت وشاخت وعلينا إجراء جراحات التجميل لإعادة صباها أو حتى الاعتراف

بموتها .

ونظن أنهم يتحدثون عن دراسة قواعد اللغة باعتبارها اللغة نفسها، وهناك فرق كبير بين هذا وذاك، فاللغة نظام من الأصوات المنطوقة أو الحروف المكتوبة تحقق عملية تواصل بين طرفين على الأقل، ومن البديهي أن يكون لهذا النظام آليات من دونها تتعطل وظيفة اللغة كآداة للتواصل، هذه الآليات هي ما نسميه القواعد. وهذه القواعد موجودة في اللغة - أي لغة - سواء قررنا دراستها أم لم نقرر، وكذلك سواء استطعنا أن ندرسها أم لم نستطع. فالشعوب البدائية مثلا لم تقرر أن تدرس قواعد لغتها لأنها لم تصل إلى مستوى حضاري يجعلها تشعر بأهمية دراسة أنشطتها الاجتماعية كاللغة لكن هذا لا ينفي أن لهذه اللغات قواعد، كما أن هناك لغات لا نستطيع أن نحيط تماما بقواعدها كلغات الحيوانات لكن هذا لا ينفي كذلك وجود هذه القواعد أو الآليات.

أما دراسة قواعد اللغة فهي المحاولات التي نبذلها لإدراك هذه الآليات. وهي محاولة قد ننجح فيها وقد نفشل لكننا في الأغلب ننجح بنسب متفاوتة، وهذا مساو تماما لما يحدث في علم كالطب مثلا، فالطب يحاول إدراك آليات الجسم الإنساني في أداء وظائفه، وتبقى المحاولات الطبية محاولات لا تعني أن ما توصل إليه الطبيب هو فعلا آلية الجسم في ممارسة وظائفه. وكثيرا ما يصل الأطباء إلى اكتشاف ما ثم تأتي الأيام فتثبت أن ما اكتشفوه لم يكن صحيحا أو لم يكن دقيقا وكهذا، وعلى هذا فإن أي كتاب

صدر لدراسة أية لغة ليس هو اللغة نفسها، وما يمكننا أن نسحبه على درس القواعد من انتقاد أو تطوير أو ... إلخ لا يمكننا أن نسحبه ببساطة على اللغة نفسها. وهنا تكمن الأزمة الحقيقية في رؤية الشوباشي أو معارضيه فالجميع ساوى تماما بين اللغة العربية ودارسيها.

وبالنظر إلى الآليات/ القواعد لأي نظام لغوي فسنرى أنها تتميز بعدة مميزات أهمها على الإطلاق أنها دائمة التغيير والتطوير وذلك باختلاف الأطراف الذين يستخدمون هذا النظام. وهذا التغيير أو التطوير لا ينتظر منا قرارات حتى يحدث، وكذلك لا يمكننا منعه إن أردنا. ولنا في اللغة العربية أكبر مثال على جميع ما ذكرنا.

فقد ظهر جماعة من الناس أطلقوا على أنفسهم اسم "العرب" ومن الطبيعي أن تكون لهم لغة لها آليات. ولكن الحقيقة أنهم لم يكونوا جماعة واحدة بل جماعات صحيح أن بينهم تشابها كبيرا لكنهم جماعات، ومن ثم كانت هناك لغات/ أنظمة متشابهة إلى حد كبير لكن بها بعض الاختلافات. على أن هؤلاء القوم أو الأقوام لم يقرروا دراسة نظامهم اللغوي باعتباره كامنا في تعاملاتهم، كما أنهم لم يصلوا بعد إلى مرحلة حضارية - كما أشرنا سابقا - تجعلهم يقيسون النشاط اللغوي لهم، حتى وإن كان هذا النشاط يمثل لهم أفضل ما يمارسون من أنشطة. وهذا يفسر لنا كيف أن الأعراب أي سكان الصحراء الذين لم يخالطوا حضارة كانوا

يمتلكون من القدرة على استخدام هذا النظام بالشكل الأمثل ما يجعلهم حلما لدارسي القواعد فيما بعد لكنهم كانوا أبعد الناس عن النحو والإعراب وغيرهما مما يعد دراسة لهذا النظام فهناك فارق كبير بين لاعب الكرة الماهر وبين الطالب في كلية التربية الرياضية.

ثم انتقل هؤلاء العرب من طور اجتماعي إلى آخر تزامن مع قيام دين جديد اعتمد في شرعيته على النشاط الأكثر أهمية لهؤلاء القوم وهو اللغة من خلال نص سماوي معجز هو القرآن الكريم، والقرآن قد استخدم الأنظمة المختلفة لهؤلاء الأقوام "فنزل على سبعة أحرف" بمعنى أنه قد استخدم ظاهرة قد تكون في قبيلة دون أخرى أي في نظام دون آخر.

وهكذا قامت الدولة العربية الواحدة سياسيا الواحدة دينيا، المتعددة اجتماعيا، فحتى بعد الإسلام مازالت طيء طيئا ومازال الحجاز حجازا، بل مازال بنو هاشم بني هاشم وبنو أمية بني أمية داخل الجماعة الواحدة. وبعد استقرار الدولة بقليل وتحديدا في عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب بدأ الاهتمام بالدراسة وهنا بدأت المشكلة!

سيبويه، المتهم أو العبقري لا يهم، كان واحدا من الجيل الرابع من دارسي القواعد، وكان واحدا من دارسي مدرسة دون غيرها هي مدرسة البصرة، ومعنى هذا أن هناك أجيال سبقته في تكريس المنهج الذي لم يكن هو المنهج الوحيد بين المناهج المختلفة في

دراسة النظام اللغوي، وعلى هذا فإن كتابه المسكين لا يتحمل أن نعتبره هو القواعد ثم نعتبره هو اللغة التي نريد الثورة أو الحفاظ عليها.

وقد شارك العرب جميعا بنسب متفاوتة في تلك المرحلة في صياغة فكرتهم عن قواعدهم بهذا الشكل الذي شابه الكثير من القصور مما سنوضحه الآن:

- اعتبر العرب أن الوحدة السياسية والدينية التي يجنون الآن ثمارها تستتبع بالضرورة وحدة لغوية بغض النظر عن واقعية هذه الوحدة فحدثت فجوة بين الخطاب الرسمي والواقع، تماما كما حدث في نواح عديدة فالمسلم أخو المسلم ولا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى لكن هذا لم يمنع أن يقتل رجال إحدى الفئتين المتناحرتين في يثرب)الأوس والخزرج) واحدا من الفئة الأخرى في غزوة "أحد" أخذا لثأر أبيه ولم يمنع أن يحدث خلاف بين المكيين واليثاربة على من يتولى خلافة الزعيم القائد في سقيفة بني ساعدة والأمثلة كثيرة ليس هنا مجال حصرها. وفي سياقنا اللغوي فإن الخطاب الرسمي تعامل مع الأنظمة اللغوية المختلفة - على أرض الواقع - باعتبارها نظاما واحدا؛ مما أجبر الدارسين على ضرورة التعامل مع ما يدرسونه بشكل مختلف عما هو عليه. وبعد اكتمال هذا الشكل الصوري، والذي لم يجد من المنطق الصوري الأرسطي وعاء أنسب، تم استبعاد ما يخالف هذا من

أنظمة ومن يخالف هذا من الأفراد.

- استند الدارسون إلى أن ما يصوغونه من قواعد مستند إلى السماء من خلال القرآن بل إنه لا يهدف إلى شيء إلا حفظ كلام السماء وقواعده من الضياع. ومن ثم حدث خطأ أكبر من الأول وهو استبعاد احتمالية التطور والتغيير، وإلا صرنا خارجين على كلام السماء، بل إنهم لم يراعوا التطورات التي حدثت من وقت القرآن إلى وقتهم وهي مدة زمنية ليست بالهينة. هذا هو التطور الذي أشرنا إلى أنه واقع لا محالة شاؤوا أم أبوا، اقترح الشوباشي أو لم يقترح، ومن ثم تعاملوا مع اللغة باعتبار أن هناك مستويين: مستوى راق يتعامل مع السماء مباشرة هو الصحيح ومستوى متدن هو للعامة والغوغاء وهو لحن أي خطأ.
- وفقا لهذه الفوقية التي تعامل بها واضعو القواعد مع اللغة فقد سجلوا من القواعد ما يوافق تصورات المنطق بمعنى أدق ما يناسب ما ينبغي أن يكون لا ما كائن وهذا هو الخطأ الذي مازلنا نقع فيه إلى يومنا هذا، بل إن كتاب الشوباشي نفسه الداعي إلى التطوير كذا محاولات العظام الذين بدؤوا الطرح من أكثر من قرن كطه حسين وشوقي ضيف وقعوا فيه جميعا فالكل يبحث عن قرارات!!

نعود إلى اللغة العربية والتي صارت بددا، نظام واحد رسمي

صوري استبعادي يلهث الجميع وراء التمسك به ناجحين أحيانا فاشلين في معظم الأحيان، وأنظمة أخرى حقيقية تتطور وفقا لسنة الحياة وتعبر عن احتياجات الأقوام المتعاملين بها، وهنا حدث وضع فريد في مسيرات اللغات، بل في سيرورة الحياة نفسها.

فالشعوب البدائية لا تهتم بدراسة أنشطتها، ثم يحدث التطور فيبدؤون في هذه الدراسة أما ما حدث مع العرب فإنهم قد وصلوا إلى مرحلة حضارية اهتموا فيه بتسجيل نشاطهم اللغوي ودراسته وهذا يحمد لهم برغم القصور الذي أشرنا إليه. إلا أنهم توقفوا بعد ذلك عن دراسة النشاط اللغوي أي دراسة قواعد اللغة التي تتعامل بها، إلى دراسة الدراسة التي قامت بها، فصار الدرس اللغوي بالنسبة لنا هو إعادة إنتاج ما أنتجه علماء اللغة وإعادة تنظيمه، فمرة يُوضع في قالب موسيقي في ألف بيت (ابن مالك) ثم تتوالى الشروحات على هذه الأبيات (ابن عقيل والأشموني وابن هشام)، ومرة يقسم بطريقة جديدة أكثر إحكاما من الطريقة الأولى (ابن هشام مرة أخرى) وصار الإنجاز هو إنشاء أطر أكثر تنميقا لهذا القالب المعيب المقصور الذي ربما كان مناسبا عند بداية الدراسة. طبعا هناك أسباب اقتصادية واجتماعية وحضارية أدت إلى هذا لكننا الآن لا نبحث الأسباب بقدر ما ننبه إلى ضرورة الاعتراف بهذا كخطوة أولى على الأقل قبل البدء في التفكير في ما ينبغي.

واقع اللغة العربية

على أن التفرقة بين دراسة اللغة واللغة نفسها لا ينبغي أن يكون صوريا هو الآخر أو متعسفا. لأن دراسة اللغة نشاط إنساني بدوره يؤثر في صيرورة اللغة، وهذا ما حدث في حالتنا. فالوضع الفريد الذي تحدثنا عنه ساهم في تكوين واقع لغوي لا يقل تفردا. لأن تمسكنا بالدراسة الصورية الأولى للغة وتعاملنا معها على اعتبار أنها هي اللغة نفسها، ومع استمرار الاعتقاد بأن هذه اللغة هي الحاملة لكتاب الله، كل هذا جعل لدينا حالة من ضرورة الاستمساك بهذه الدراسات والالتزام بها، وفي ظننا أن هذا هو الذي أنشأ ما أسماه الأستاذ الشوباشي شيزوفرينيا لغوية، وهي ملاحظة ذكية تنقصها الدقة.

فالواقع أنه نشأ لدينا نتيجة لهذا الصراع بين ما هو كائن، لغة تتطور باستمرار، وبين ما ينبغي، إدراك اللغويين للغة وقت نزول القرآن ، نظام لغوي ثالث وسيط بين النظامين هو ما نعتقد اليوم أنه الفصحى، وعلى هذا فإن لدينا الآن أربعة أنظم لغوية مختلفة فيما بينها اختلافا يكاد يكون جذريا، بل لا نبالغ إذا قلنا إنها أربع لغات من أصل واحد نوردها في ما يلي:

١- النظام الأول: هو اللغة كما كان العرب يتعاملون بها وقت نزول القرآن وما قبله بقليل وما بعده بقليل، مع الأخذ في الاعتبار الفارق بين الجماعات اللغوية المختلفة، وهو نظام مؤقت بتلك الفترة الزمانية كما أنه مقيد بمكان استخدامه (القبيلة) وقد

انتهى تماما ولم يعد له وجود على وجه البسيطة.

٢- النظام الثاني: هو التصور أو الافتراض الذي نظمه اللغويون للنظام الأول وهو ما نجده في كتب النحويين المتقدمين والمتأخرين، وهو نظام بحكم أنه متصوَّر فهو ثابت ومستقر، غير أنه مستقر في بطون الألفية ونحوها، كما أنه غير مستخدم بصورة عملية فضلا عن أحدا لم يستخدمه في يوم من الأيام. وقد يقال: وأين نضع ما كتبه شعراؤنا وكتابنا عبر العصور المختلفة المتنبي وأبي حيان التوحيدي وعبد القاهر وابن سينا والفارابي و.....؟ أقول باطمئنان: نضعه في النظام الرابع الذي سيأتي لاحقا.

٣- النظام الثالث: هو ما يتعامل به الناس فعلا في تعاملاتهم اليومية، وهي العامية في أي بلد اتخذ من العربية لسانا، مكانيا وزمانيا، يعني عامية مصر في بدايات القرن الحادي والعشرين، عامية المغرب في أواسط القرن التاسع عشر وهلم جرا، وكما نرى فإن هذا النظام متطور زمانيا ومكانيا وعلى هذا فإنه غير ثابت وغير مستقر لأكثر من ربع قرن أو خارج حدود بقعة معينة.

٤- النظام الرابع: هو نظام نشأ لتقريب المستوى الثالث، الذي يوصم عادة بالتدني، للمستوى الثاني والذي يعتبره الكثيرون المعيار للغة أو اللغة الصحيحة، وهذه هي اللغة التي كتب بها شعراؤنا وأدباؤنا على مر العصور بدليل أن النحاة أنفسهم لم

يعتدوا بما كُتب بعد مئة وخمسين سنة من نزول القرآن، فهم على حد تعبيرهم لا يخلو من اللحن أي الخطأ، وهذا اللحن هو مظاهر التطور الذي نتكلم عنه ونعتقد أنه حادث لا محالة، كما أن هذا النظام الرابع هو اللغة التي أكتب بها الآن، وهي اللغة الرسمية التي نقرأ بها نشرات الأخبار ونتلو بها خطبنا السياسية ونحوها، ونكتب بها كتبنا وجرائدنا ونستطيع القول إجمالا بأنها لغة الكتابة حتى إننا ما إن نمسك الورقة والقلم حتى نبدأ في استخدام هذه اللغة حتى وإن كان أحدنا يخط خطابا لزوجته يخبرها فيها بأن توقظه الساعة كذا لأن لديه موعدا مهما.

وفيما يلي سنحاول التدليل على صحة هذه الفرضية، وهذا التدليل يحتاج إلى دراسة مستقلة إلا أننا سنحاول الإيجاز معتمدين على جانب واحد هو النحو بمعنى تركيب الجملة ومن خلال ظاهرة واحدة حيرت الكثيرين وهي وجود علامات في نهايات الكلمة تدل على وظيفة الكلمة في الجملة وبعبارة أبسط رفع الفاعل ونصب المفعول به وجر المضاف إليه وما إلى ذلك، واتخاذ علامات لهذه الوظائف الضمة .. الفتحة .. ثبوت النون ...إلخ إلخ:

- كان العربي الأول ينطق جملته ويضع في نهاية كل كلمة علامة تدل على وظيفته ولنأخذ مثالا: "شكر الطالب المدرس على شرح الدرس"، فكان يضع في نهاية كلمة الطالب ضمة

والمدرس فتحة وما إلى ذلك مما يعرفه أي مبتدئ في علم النحو، وسنتجنب هنا مناقشة من ينادي بأن هذه العلامات من صنع النحاة حتى لا نبتعد عن صلب الموضوع، نقول كان العربي يفعل ذلك دون وعي بالقواعد التي تتحكم في هذه العلامات، غير أن هذا كما ذكرنا لا ينفي وجود هذه القواعد.

- جاء النحاة ليدرسوا هذه العلامات، فأقاموا نظاما بالغ الدقة يقسم الكلمات إلى وظائف (مبتدأ - خبر - مفعول به - ...) وقسموا الوظائف إلى حالات (مرفوع - منصوب - مجرور - ....) وبدؤوا في البحث عن ارتباط بين العلامات والوظائف والحالات، فالمبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة والمفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة وهلم جرا، فنشأ الإعراب. وهنا يأتي السؤال: هل هذا التصور الدقيق جدا هو اللغة نفسها؟ نشك كثيرا في هذا، ولكن قبل الشك علينا أن نفهم أنه حتى وإن لم تعبر تصوراتهم عن واقع اللغة بدقة فإن هذا لا يعني عدم وجود العلامات ووجود قواعد لها في تلك الفترة.
- المهم أنه نشأ لدينا نظامان: نظام يستخدم العلامات بتلقائية، ونظام يفترض أنه قد فهم هذه العلامات وصاغ قواعدها بصورة نهائية، وكلما تبين لهم قصور في هذا الفهم زادوا من القواعد حتى يلتفوا على هذا التعارض ولنأخذ مثالا صارخا: في الجملة القرآنية الشهيرة "إن هذان لساحران" يحدث تعارض كبير بين نص واقعي (القرآن) ناهيك عن قدسيته،

وبين تصور افتراضي قائم على أن ما أسموه "اسم إن" يجب أن تنصب وأن تكون علامة نصبها هي "الياء" إن كان مثنى، ومن ثم فإن الجملة الصحيحة هي "إن هذين لساحران"، فبدأ النحاة في إضافة قواعد جديدة لكي يظل النص صحيحا - رغم أنه لا يحتاج إلى إثبات صحة، فالدراسة هي التي تحتاج إلى إثبات مطابقتها للواقع - وتظل القواعد كذلك صحيحة ومعبرة عن الواقع اللغوي، فنقرأ لابن هشام أحد عشر تفسيرا يوفق بين واقع اللغة والتصور لا داعي لسردها الآن، لكن يكفي أن نعرف أن محاولات التوفيق وصلت إلى حد تغيير النص عند الرواية الأشهر من: "إنّ هذان لساحران" إلى "إنْ هذان لساحران".

- هذان هما النظام الأول والنظام الثاني أما النظام الثالث وهو العامية فإنه أساسا ليس لديه علامات للإعراب، ولم يكن هذا من باب القصور في اللغة ولا الرغبة في التسهيل، بل إنه في تصورنا جاء نتيجة لفقد الاحتياج إليه، لأن الجملة في العامية تحتفظ بترتيب ثابت يجعلنا في أمن من الالتباس فحين تقول بالعامية المصرية: "الطالب شكر المدرس" فإنك لا يمكن أن تعني إلا أن الطالب هو الذي توجه بالشكر إلى المدرس بعكس اللغة العربية وقت ظهور القرآن، لأن الجملة نفسها قد تعني أن الطالب توجه بالشكر إلى المدرس أو العكس والعلامات هنا هي الفيصل، ولا أعرف إن كان القارئ قد حدث له نفس

الارتباك الذي حدث لي عندما كنت طفلا وقرأت: "إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ"، فظننت أن الله يخاف من العلماء، لأن الفتحة والضمة لم تمثلا لي شيئا، وإنما الترتيب هو الفيصل بالنسبة لي؛ فالذي يفعل الفعل يأتي أولا طبقا لقواعد لغتي المصرية التي لم أدرسها بعد لكني أستخدمها.

هذه الظاهرة التي تكلمنا عنها بتبسيط وإيجاز هي واحدة من ظواهر عديدة حين تجتمع معا تخلق نظاما مختلفا في كل مرة، ولفض النزاع بين هذه الأنظمة المختلفة ظهر النظام الرابع، أو اللغة التي تفصح العامية، أو تعمم الفصحى، أو تقيم صلحا بينهما. وهذه اللغة هي ما تحتاج حديثا مستقلا.

اللغة العربية المعاصرة
(النظام الرابع)

هذا النظام اللغوي يسميه البعض اللغة العربية المعاصرة ويسميه البعض الفصحى الحديثة ويسميه البعض اللغة الثالثة على اعتبار أنه وسط بين العامية والفصحى، غير أن الكثيرين يعتبرون أن هناك فصحى واحدة ولذلك لا يعترف باستقلاليته بل بوجوده أصلا.

ونحن نعتبر أن هذا النظام اللغوي هو المشكلة التي دعت طه حسين وغيره قديما ودعت الشوباشي حديثا لإثارة قضية اللغة العربية، وبالطبع كان ذلك نتاجا طبيعيا لما يتميز به هذا النظام دون غيره من الأنظمة الثلاثة الأخرى.

والفيصل في هذا التفرد هو مستخدمي النظام، فاللغة وقت ظهور القرآن لا تحتاج من ممارسها إلى تدريب مسبق فهو يستخدمها بتلقائية كشأن كل اللغات في أي مكان وزمان. كما أن العامية اليوم لا تحتاج إلى درس في القواعد من مستخدمها ليفهم المصري مثلا أن النفي في الماضي يتم بأن يسبق الفعل حرف الميم ونختم الفعل بحرف الشين لتكون: "مكتبتش". صحيح أن الفصحى القياسية أي الفصحى كما تصورها واضعو القواعد تحتاج إلى تدريب مسبق إلا أنها كما بيّنا سالفا ليس لها مستخدمون - بكسر الدال -.

وعلى هذا فإن هذه اللغة - التي أكتب بها الآن - تتميز بعدة مميزات:

- أولا: هي لغة مصطنعة تحتاج من ممارسها إلى قدر من التدريب حتى يستطيع أن يمارسها بشكل مقبول من صانعيها. فبعد أن يتعلم الإنسان في البلاد العربية لغته التي سيمارسها للتواصل نقول له: "إن عليك تعلم لغة جديدة لأنك لن تُقبل - بضم التاء - كاتبا على أي مستوى من الكتابة من دونها". ولأن الكتابة مهارة مختلفة عن الكلام، كما أنها تكتسب في مرحلة لاحقة بعد أن تكون مرحلة الاستخدام التلقائي للغة قد ذهبت، فنجد أن التمكن من استخدام هذه اللغة يتفاوت من شخص إلى شخص بعكس الأنظمة اللغوية الأخرى.
- ثانيا: تتطور هذه اللغة زمانيا ومكانيا؛ إذ أنها نشأت أساسا للتقريب بين الممارسة الفعلية للغة (العامية) وبين مستوى قياسي (فصحى النحو)، ولما كانت العاميات تختلف فقد صارت هذه اللغة أيضا مختلفة، فما كان يكتبه المنفلوطي مثلا لم يعد مقبولا أن يتداول الآن، وقد سمح هذا بخدعة كبيرة إذ جعلنا نظن أن هؤلاء الكتاب أجلاء وعظام استطاعوا أن يستخدموا اللغة بشكل أفضل منا، والحقيقة أن لغة هذه الفترة كانت وسيطا بين عامية تلك الفترة والفصحى القياسية، وهي لا تقل عن فصحانا اليوم ابتعادا وغربة عن فصحى امرؤ القيس وزهير وطرفة والقرآن بالطبع، كما أن الفصحى المستخدمة في

الجـرائد المصـرية مـثـلا تخـتلف ولو قليـلا عن الفـصـحى المستخدمة في الجرائد اللبنانية أو التونسية أو غيرهما.

- ثالثا: لما كانت هذه اللغة مصطنعة ومتغيرة فإنها النظام اللغوي الوحيد بين الأنظمة التي تحدثنا عنها القابل للتدخل بقرارات بمعنى أن العامية يستقيها الطفل مما حوله تلقائيا ومن هنا فلا يمكن للأب أو الأم أو المتحدثين حول الطفل أن يقرروا مثلا تغيير طريقة النفي في كلامهم حتى يتعلم الطفل الطريقة الجديدة. لكننا نستطيع عبر مقرري مناهج التعليم وغيرهم أن نحذف بابًا من أبواب القواعد أو نضيف بابا آخر حتى نضبط لغة المتعلم، ومن هنا تأتي الدعوات للتسهيل تارة والتطوير تارة أخرى والإلغاء وغيرها من الدعوات التي قد تلقى قبولا وقد لا تلقى هذا القبول، غير أن ما ننبه إليه هنا هو أن هذه الدعوات تصطدم بمن يظن أنها – الدعوات – موجهة إلى اللغة العربية نفسها.

مجرد تساؤلات

وبعد، فإن قضية الـ "ما ينبغي" هي قضية شائكة وتتطلب إقرارا منا بداية بأن واقع اللغة يحتاج إلى مزيد من البحث الحر غير المنطلق من ثوابت أيديولجية سواء أكانت هذه الثوابت أن اللغة العربية هي لغة القرآن والمساس بها هو عبث بالقرآن أم كانت أننا العرب صاروا قوما متخلفين وينبغي لهم تطوير لغتهم حتى يتسنى لهم التقدم، فاللغة مجرد واحد من الانشطة الإنسانية ذات الطابع

الاجتماعي، صحيح أنها تعكس الثقافة لكنها لا تصنعها، تعبر عن الفكر لكنها لا تشكله. والطريق الوحيد للتقدم هو التقدم ذاته فلا تطوير اللغة - إن كان هناك شيء اسمه تطوير اللغة - يسبب تطورا اجتماعيا واقتصاديا، ولا الحفاظ على دراسة الأقدمين لقواعد اللغة يحافظ على علاقتنا بالقرآن، والجدير بالذكر هنا أن هذا الاستمساك النظري بتلك القواعد لم ينجح عبر العصور في إقامة الجسور بين القارئ العربي والقرآن، وإنك تجد أن واحد من بين كل ألف - هذا من باب التفاؤل- من يعرفون ما معنى "الصمد" و"النفاثات في العقد".

كما أننا نظن أنه دون فتح النقاش الحر المتخصص حول واقع اللغة العربية فإننا لن نصل إلى مقترحات صائبة وعملية تحقق تقدما لا يتسم بالشمول بقدر ما يستهدف النهوض بمجال واحد هو الدراسات اللغوية، وعليه فإن هذه الدراسة المبدئية هي مجرد تساؤلات بخصوص اللغة العربية.

وإذا كان لنا في النهاية أن نضع مقترحات كي لا يتسبب كلامنا في إحداث بلبلة تزيد الأمر سوءا، فإننا في السطور التالية سنحاول صياغة مقترحات مبدئية لا نظن أنها النهاية، مقترحات تفتح الباب للنقاش أكثر مما تحسم ما لا يمكن حسمه بعد جلسة (فضفضة) أو مقال عابر:

- أولا: الاعتراف بأن اللغة مختلفة عن دراسة اللغة ومن ثم يجب

علينا أن نضع كل ما كتبه النحويون الأجلاء من أبي الأسود الدؤلي – وليس سيبويه – وحتى يومنا هذا مستخدما نفس المنهج الأرسطي في ذات الموضع الذي نجد فيه طب ابن سينا، وجغرافيا الإدريسي، واجتماعيات ابن خلدون، وهو موضع تقدير وإجلال ومحل دراسة باعتباره مرآة لطريقة العرب في التفكير في زمان ما، على أنه لا يلزمنا بشيء في فهم اللغة لا في وقتهم ولا الآن، فمن غير المعقول أن أشتري كتب ابن سينا في الطب اليوم حتى أعرف كيف أعالج نفسي إذا أصابني مرض.

- ثانيا: العدول عن فكرة أن هدف دراسة اللغة هو ضبط الكلمات أو ضبط ما ستنتجه الأجيال القادمة من أفكار، فهدف دراسة قواعد أية لغة هو الكشف عن الآليات التي تستخدمها هذه اللغة، على أن هذه الآليات ليست ملزمة لمن سيأتي في المستقبل، وقد أشرنا إلى أن قواعد اللغة في تطور دائم شئنا أم أبينا.
- ثالثا: البحث عن مناهج لغوية جديدة تدرس اللغة العربية في عصورها المختلفة، وذلك ليس بهدف الاقتراب من هذا المستوى العالي، بل بهدف الفهم الصحيح للنصوص المكتوبة بهذه اللغة، حيث إن هذه النصوص تشكل تراثا مهما للإنسانية بغض النظر عن أنه تراثنا. على أن تكون هذه المهمة للأقسام المتخصصة في ذلك، وتدرس في مراحل متقدمة من التعليم دون إلزام الجميع وإرهاقهم بجواز الابتداء بالنكرة، وضمير

الشأن وشروط كسر همزة "إن" وفتحها.

- رابعا: دراسة العاميات ووضع محاولات لتقعيدها، وفتح المجال لاستخدامها في الكتابة ليس بهدف إحلالها محل الفصحى الحديثة (اللغة الرابعة)، بل ليتجاورا، ولكي نستطيع تعليمها لغير الناطقين بها على نحو سليم فيمكن للأجنبي الذي يرغب في القراءة والكتابة بل يرغب في الحديث إلى الناس في الشارع أن يجد لها دراسات حتى يحترمها ويحترمنا، كما يمكن للمصري أن يدرس التونسية وللمغربي أن يدرس اللبنانية وأظن أن هذا قد -أقول "أظن" و"قد" - يساعد على التقارب بين البلدان العربية المختلفة.
- خامسا: التعامل الحذر مع الفصحى الحديثة، وإعادة دراستها وتقعيدها وفقا لمنهج جديد، على أن هذه الدعوى لا تتفق على الإطلاق مع دعوى الشوباشي، فما زلت ضد القرارات في دراسة اللغات، لأنه ينبغي لنا أن ندرسها كما هي، وأن نقبل ما بها من ظواهر لغوية، اتفقت مع اللغة القياسية للنحاة العربي أو لم تتفق هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى اتفقت مع التسهيل المأمول لدى الكثيرين أو لم تتفق.

وتكون هذه اللغة هي اللغة التي يتعلمها -بالدراسات الحديثة - الطلاب في المراحل المختلفة للتعليم، على أن تراجع قواعدها تلقائيا كل فترة لا تزيد عن خمسين سنة، وإقرار ما لحق بها من إضافات وحذف ما سقط منها وفقا لاستخدامها.

إشارات

قَالَ الزُّهْرِيُّ أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ كَرِهَ لِزَيْدِ ابْنِ ثَابِتٍ نَسْخَ الْمَصَاحِفِ، وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أُعْزَلُ عَنْ نَسْخِ كِتَابَةِ الْمُصْحَفِ، وَيَتَوَلاَّهَا رَجُلٌ، وَاللهِ، لَقَدْ أَسْلَمْتُ وَإِنَّهُ لَفِي صُلْبِ رَجُلٍ كَافِرٍ، يُرِيدُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ اكْتُمُوا الْمَصَاحِفَ الَّتِي عِنْدَكُمْ وَغُلُّوهَا؛ فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ: وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَالْقُوا اللهَ بِالْمَصَاحِفِ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَبَلَغَنِي أَنَّ ذَلِكَ كَرِهَهُ مِنْ مَقَالَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ رِجَالٌ مِنْ أَفَاضِلِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ.

رواه ابن ماجه في سننه كتاب المقدمة، باب فضل عبد الله بن مسعود (١/٤٩) ح ١٣٨، و كتاب المصاحف،لابن أبو داود الجستستاني باب كتابة المصاحف ص ١٥٢-, ١٥٣

" الآثار الدالة على أن إمام المسلمين وأمير المؤمنين عثمان بن عفان رحمة الله عليه جمع المسلمين نظرا منه لهم، وإشفاقا منه عليهم ، ورأفة منه بهم ، حذار الردة من بعضهم بعد الإسلام والدخول في الكفر بعد الإيمان إذ ظهر من بعضهم بحضرته وفي

عصره التكذيب ببعض الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن مع سماع أصحاب رسول الله النهي عن التكذيب بشيء منها وإخباره إياهم أن المراء فيها كفر، فحملهم رحمة الله عليه إذ رأى ذلك المراء بينهم في عصره وبحداثة عهدهم بنزول القرآن وفراق رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم بما آمن عليهم معه عظيم البلاء في الدين من تلاوة القرآن على حرف واحد ، وجمعهم على مصحف مخالفا المصحف الذي جمعهم عليه أن يحرقه ، فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة ورأت أن فيما فعل من ذلك الرشد والهداية ، فتركت القراءة بالأحرف الستة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها طاعة منها له ونظرا منها لأنفسها ولمن بعدها من سائر أهل ملتها ، حتى درست من الأمة معرفتها وتعفت آثارها ، فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها لندورها وعفوّ آثارها وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها من غير جحود منها بصحتها وصحة شيء منها ، ولكن نظراً منها لأنفسها ولسائر أهل الدنيا فلا قراءة اليوم للمسلمين إلا بالحرف الواحد الذي اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح ون ما عداها من الأحرف الستة الباقية.

■■■■■

تفسير الطبري ج ١/٢٢
من كتاب القرآن في علوم القرآن:

فِي الْمُسْتَدْرَك-:- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ--:- سَأَلْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي

طَالِب-:- لِمَ لَمْ تُكْتَبْ فِي بَرَاءَةٌ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ-؟- قَالَ-:- لأَنَّهَا أَمَانٌ، وَ بَرَاءَةٌ نُزِّلَتْ بالسَّيْفِ--.-

وَعَنْ مَالِك أَنَّ أَوَّلَهَا لَمَّا سَقَطَ سَقَطَ مَعَهُ الْبَسْمَلَةُ؛ فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهَا كَانَتْ تَعْدِلُ الْبَقَرَةَ لِطُولِهَا--.-

وَفِي مُصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِائَةٌ وَاثْنَتَا عَشْرَةَ سُورَةً لأَنَّهُ لَمْ يَكْتُبِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ وَفِي مُصْحَفِ أُبَيٍّ سِتَّ عَشْرَةَ؛ لأَنَّهُ كَتَبَ فِي آخِرِهِ سُورَتَيِ الْحَفْدِ وَالْخُلْعِ-.-

أَخْرَجَ أَبُو عُبَيْد، عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، قَالَ-:- كَتَبَ أُبَيُّ بْنُ كَعْب فِي مُصْحَفِه فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ وَاللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَعِينُكَ وَاللَّهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَتَرَكَهُنَّ ابْنُ مَسْعُودٍ--.- وَكَتَبَ عُثْمَانُ مِنْهُنَّ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ--.-

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي الدُّعَاءِ مِنْ طَرِيق عَبَّادِ بْنِ يَعْقُوبَ الأَسَدِيِّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْلَى الأَسْلَمِيِّ، عَنِ ابْنِ لَهِيعَةَ، عَنِ ابْنِ هُبَيْرَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زُرَيْرٍ الْغَافِقِيِّ قَالَ--:- قَالَ لِي عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ--:- لَقَدْ عَلِمْتُ مَا حَمَلَكَ عَلَى حُبِّ أَبِي تُرَاب إِلاَّ أَنَّكَ أَعْرَابِيٌّ جَافٌّ، فَقُلْتُ--:- وَاللَّهِ لَقَدْ جَمَعْتُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْتَمِعَ أَبَوَاكَ، وَلَقَدْ عَلَّمَنِي مِنْهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب سُورَتَيْنِ عَلَّمَهُمَا إِيَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا عَلِمْتَهُمَا أَنْتَ وَلاَ أَبُوكَ-:- اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَعِينُكَ وَنَسْتَغْفِرُكَ، وَنُثْنِي عَلَيْكَ وَلاَ نُكْفُرُكَ، وَنَخْلَعُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ، اللَّهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَلَكَ نُصَلِّي وَنَسْجُدُ، وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ، نَرْجُو

رَحْمَتَكَ، وَنَخْشَى عَذَابَكَ، إِنَّ عَذَابَكَ بِالْكُفَّارِ مُلْحَقٌ--.-

أخرج أحمد بن حنبل في مسنده:

●●●

"حدثنا عبد الله ثنا خلف بن هشام ثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن زر عن أبي بن كعب أنه قال : "كم تقرؤون سورة الأحزاب ؟ قلت : ثلاثا وسبعين آية. قال: قط! لقد رأيتها وأنّها لتعادل سورة البقرة وفيها آية الرجم! قال زرّ: قلت وما آية الرجم؟ قال : (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم)". مسند أحمد ٥/١٢٣ حديث ,٢١٢٤٥ والإتقان ,٢/٢٥

●●●

عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت:

كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن النبي مائتي آية فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن الإتقان ٢/٢٥ .

نقل السيوطي في تفسير الدّر المنثور عن تاريخ البخاري، عن حذيفة أنّه قال: قرأت سورة الاحزاب على النبيّ، فنسيت منها سبعين آية ما وجدتها. الدرّ المنثور ٥ / ١٨٠، في أوّل تفسير سورة الاحزاب.

جوامع السيرة ص ٢٧٧؛ وتقريب التهذيب ١ / ١٥٦

●●●

حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ قَالَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنِ

الأَسْوَدِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ كِلَانَا جُنُبٌ وَكَانَ يَأْمُرُنِي فَأَتَّزِرُ فَيُبَاشِرُنِي وَأَنَا حَائِضٌ وَكَانَ يُخْرِجُ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فَأَغْسِلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ.

من صحيح البخاري - باب الحيض

ومنه أيضا: حَدَّثَنَا زَكَرِيَّاءُ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، قَالَ: هِشَامٌ حَدَّثَنَا، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: " كُنْتُ أَغَارُ عَلَى اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ (ص) وَأَقُولُ: أَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ، قُلْتُ: مَا أُرَى رَبَّكَ إِلاَّ يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ"

ومن البخاري أيضا: -حدثنا - -محمود - -حدثنا - -عبد الرزاق - -أخبرنا - -معمر - -عن - -ابن طاوس - -عن - -أبيه - -عن - -أبي هريرة - -رضي الله عنه - -قال: أرسل ملك الموت إلى - -موسى - -عليهما السلام - -فلما جاءه - -صكه - -فرجع إلى ربه فقال أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت فرد الله عليه عينه وقال - -ارجع فقل له يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطت به يده بكل شعرة سنة قال أي رب ثم ماذا قال ثم الموت قال فالآن فسأل الله أن يدنيه من - -الأرض المقدسة - -رمية - -بحجر قال قال رسول الله - -صلى الله عليه وسلم - -فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند - -الكثيب -الأحمر.

قصة مريم كما وردت عند أمية بن أبي الصلت قبل الإسلام، وأمية هو شاعر كان مهتما بالشأن الديني وقصص الأنبياء:

وَفي دينِكُم مِن رَبِ مَريمَ آيةٌ
مُنَبِّئَةٌ بالعَبدِ عيسى ابنِ مَريمِ
اَنابَت لِوَجهِ اللَه ثُمَّ تَبتَّلَت
فَسَبَّحَ عَنها لَومَةَ المُتَلَوِّمِ
فَلا هِيَ هَمَّت بالنِكاحِ وَلا دَنَت
إِلى بَشرٍ مِنها بِفَرجٍ وَلا فَمِ
وَلَطَّت حِجابَ البَيتِ مِن دُونِ أَهلِها
تَغَيَّبُ عَنهُم في صَحارِيٍّ رِمرِمِ
يَحارُ بِها الساري إِذا جَنَّ لَيلُهُ
وَلَيسَ وَإِن كانَ النَهارُ بِمُعلَمِ
تَدَلّى عَلَيها بَعدَ ما نَامَ أَهلُها
رَسولٌ فَلم يَحصَر وَلَم يَتَرَمرَمِ
فَقالَ أَلا لا تَجزَعي وَتُكَذِّبي
مَلائِكَةً مِن رَبِ عادٍ وَجُرهُمِ
أَنيبي وَأَعطي ما سُئِلتِ فَاِنَّني
رَسولٌ مِن الرَحمنِ يَأتيكِ بابنَمِ
فَقالت لَهُ أَنّى يَكونُ وَلَم أَكُن
بَغِيّاً وَلا حُبلى وَلا ذاتَ قَيِّمِ

أَأُحرَجُ بالرَحمن إن كُنتَ مُسلماً
كَلامِيَ فاقعُد ما بَدا لَكَ أَو قُمِ
فَسَبَّحَ ثُمَّ اغتَرَّها فالتَقَت به
غُلاماً سَوِيَّ الخَلقِ لَيسَ بتَوأَمِ
بِنَفخَتِهِ في الصَدرِ مِن جَيبِ دِرعِها
وما يَصرِمِ الرَحمَنُ مِلأَمرِ يُصرَمِ
فَلمّا أَتَمَتَّهُ وجاءَت لِوضعِه
فآوى لَهُم مِن لَومِهِم والتَنَدُّمِ
وَقالَ لَها مَن حَولَها جئتِ مُنكَراً
فَحَقٌّ بأَن تُلحَي عَلَيهِ وَتُرجَمي
فَأَدرَكَها مِن ربّها ثُمَّ رَحمَةً
بِصِدقِ حَديثٍ مِن نَبيٍّ مُكَلَّمِ
أَنيبي وأَعطي ما سُئِلتِ فإنَّني
رَسولٌ مِن الرَحمن يَأتيكِ بابنَمِ
وأُرسِلتُ لَم أُرسَل غَوِيّاً ولَم أَكُن
شَقيّاً ولَم أُبعَث بِفُحشٍ وَمَأثَمِ

●●●

وهذه خطبة قس بن ساعدة الإيادي حكيم العرب قبل الإسلام:

يا أيها الناس اسمعوا وعوا

وإذا وعيتم فانتفعوا
إنه من عاش مات
ومن مات فات
وكل ما هو آت آت
مطر ونبات
وأرزاق وأقوات
وآباء وأمهات
وأحياء وأموات
جمع وأشتات وآيات
وأرض ذات رتاج
وبحار ذات أمواج
ما لي أرى الناس يذهبون
فلا يرجعون
أرضوا بالمقام فأقاموا
أم تركوا هناك فناموا
أقسم قس قسماً
لا حانث فيه ولا آثماً
إن لله ديناً هو أحب إليه
من دينكم الذي أنتم عليه
ونبياً قد حان حينه

وأظلكم أوانه
فطوبى لمن آمن به فهداه
وويل لمن خالفه وعصاه
تباً لأرباب الغفلة من الأمم الخالية
والقرون الماضية
يا معشر إياد
أين الآباء والأجداد
وأين ثمود وعاد
وأين الفراعنة الشداد
أين من بنى وشيد
وزخرف ونجد
وغره المال والولد
أين من بغى وطغى
وجمع فأوعى
وقال أنا ربكم الأعلى
ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً
وأطول منكم آجالاً
وأبعد منكم آمالاً
طحنهم الثرى بكلكله
ومزقهم بتطاوله

فتلك عظامهم بالية
وبيوتهم خاوية
عمرتها الذئاب العاوية
كلا بل هو الله الواحد المعبود
ليس والد ولا مولود
أعاد وأبدى
وإليه المآب غدا.

●●●

من ذِكرِ قس بن ساعدة في "البداية والنهاية" لابن كثير:

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب (هواتف الجان): حدثنا داود القنطري، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني أبو عبد الله المشرقي، عن أبي الحارث الوراق، عن ثور بن يزيد، عن مورق العجلي، عن عبادة بن الصامت قال: لما قدم وفد إياد على النبي قال: »يا معشر وفد إياد ما فعل قس بن ساعدة الإيادي«.

قالوا: هلك يا رسول الله.

قال: » لقد شهدته يوما بسوق عكاظ على جمل أحمر يتكلم بكلام معجب مونق لا أجدني أحفظه «.

فقام إليه أعرابي من أقاصي القوم فقال: أنا أحفظه يا رسول الله.

قال: فسر النبي بذلك قال: فكان بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول:

يا معشر الناس اجتمعوا فكل من فات فات، وكل شيء آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج، وبحر عجاج، نجوم تزهر، وجبال مرسية، وأنهار مجرية، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا فناموا، أقسم قس بالله قسما لا ريب فيه إن لله دينا هو أرضى من دينكم هذا، ثم أنشأ يقول:

في الذاهبين الأولين
من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا
للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها
يمضي الأصاغر والأكابر
لا من مضى يأتي إليك
ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة
حيث صار القوم صائر

وهذا إسناد غريب من هذا الوجه.

وقد رواه الطبراني من وجه آخر فقال في كتابه)المعجم الكبير):

حدثنا محمد بن السري بن مهران بن الناقد البغدادي، حدثنا محمد بن حسان السهمي، حدثنا محمد بن الحجاج، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس قال: قدم وفد عبد القيس على النبي فقال: » أيكم يعرف القس بن ساعدة الإيادي «.

قالوا: كلنا يعرفه يا رسول الله.

قال: » فما فعل؟ «.

قالوا: هلك.

قال: » فما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام وهو على جمل أحمر وهو يخطب الناس وهو يقول: يا أيها الناس اجتمعوا واستمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور، وأقسم قس قسما حقا لئن كان في الأمر رضى ليكون بعده سخط، إن لله لدينا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا «.

ثم قال رسول الله : أفيكم من يروي شعره؟ فأنشده بعضهم في الذاهبين الأولين ... إلخ.